رمضان يصنعك

تأليف

د. شريف فوزي سلطان

عفا الله عنه بمنه وكرمه





رَمَضَانُ يَصْنَعُك

رَمَضَان يُربِّينا ويُعلِّمنا ويزكِّينا



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٤٧هـ / ٢٠٢٥ م

رقم الإيداع: / ٢٠٢٥ م

رقم الإيداع:

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 -0502357979

رَمَضَانُ يَصْنَعُك

رَمضَان يُربِّينا ويُعلِّمنا ويزكِّينا

(مَدْرَسَة الثَّلَاثِيْنَ يَوْمًا)

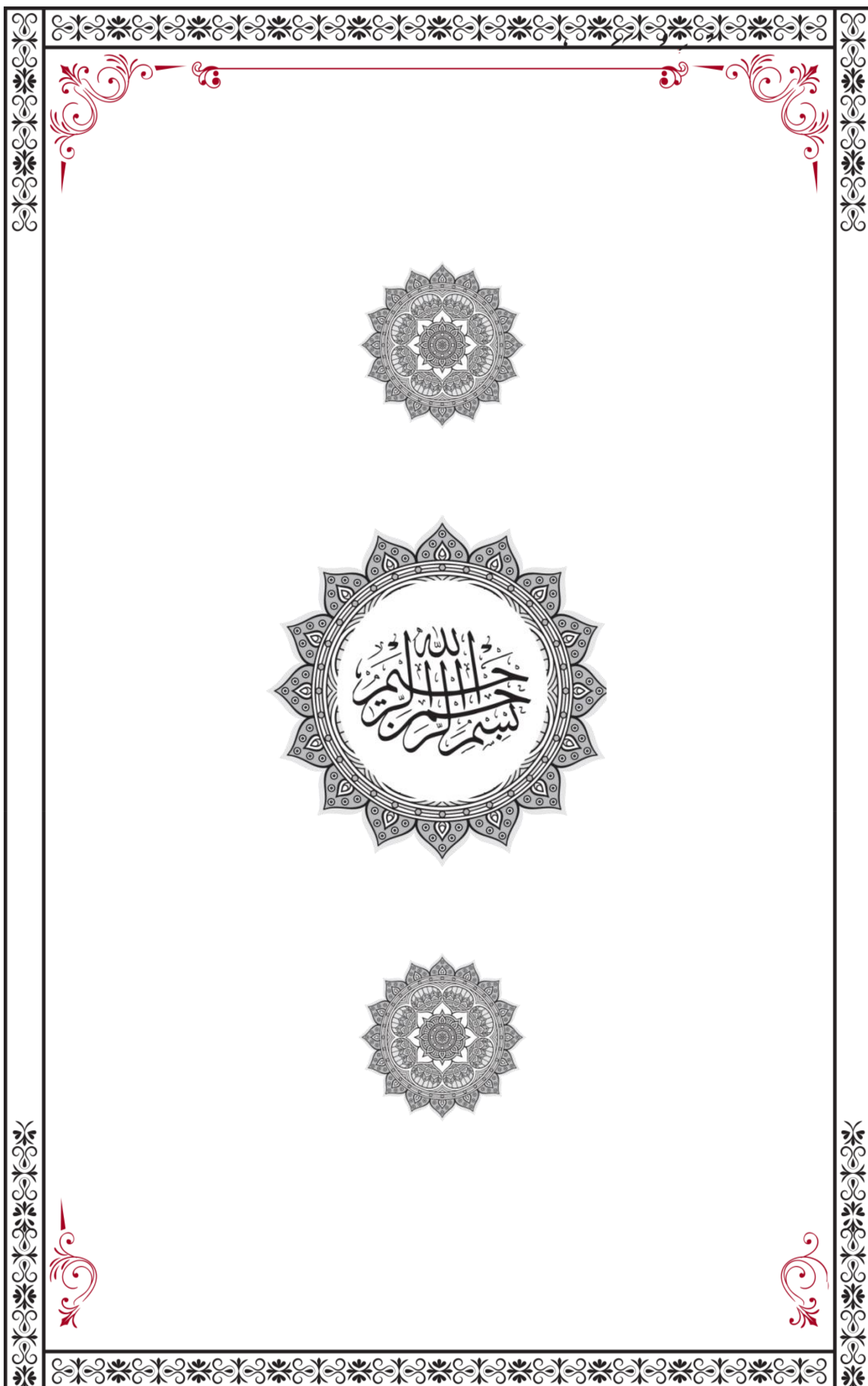
د. شريف فوزي سلطان

عفا الله عنه بمنِّه وكرمه

دَارُ اللُّؤْلُؤَة

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

المَنْصُورَة - مِصْر


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

إلى والدتي حفظها الله وغفر لها

إلى شقيقة الروح أم المقدام، رفع الله درجتها في عليين

إلى قرة عيني، إلى بسمتي التي رُسمت على وجهي، ابنتي الغالية: مروة

إلى صديقي الصدوق وصاحبي الأوفى

الشيخ نافع الأودن




مقدمة

الحمد لله، وأشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

صلِّ اللهم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، وكلِّ من اهتدى بهديه واستنَّ بسنته إلى يوم الدين.

اللهم اجعل عملَنا كلَّه صالحًا، واجعلْه لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا.

أما بعد:

فإن رمضانَ مدرسةٌ حقيقية، يُصنعُ فيها إيمانك، وتُهذَّبُ فيها نفسُك، ويَصلح فيها قلبُك، وتُنشئُ منك خلقًا آخَرَ له إرادة قوية تُعليه فوق شهوات الدنيا ومُتعِها الرخيصة، وتجعله منتصرًا على عدوِّه الداخلي، نفسِه وشيطانِه، مما يُهيِّئه للانتصار على أي عدوٍّ آخَر.

فالصوم مدرسة بكل ما تعنيه الكلمة من معان عظيمة، مدرسة تَصلح به دنيانا وأخرانا، مدرسة الإخلاص والمراقبة والإحسان، مدرسة القرآن والقيام والمناجاة، مدرسة الأخلاق، مدرسة الصبر والإرادة والشكر، مدرسة الاتحاد والتعاون والرحمة، مدرسة التقوى والعبودية، مدرسة الصحة




الجسدية والمعنوية، مدرسة النظام، مدرسة التجارة الحقيقية مع الله تعالى، مدرسة تربوية متعددة الجوانب، يتخرج منها المسلم في ثوب إيمانيٍ جديد، يدخل به في مستقبلٍ أفضل، بهِمَّة سَحابية قوية في كسب الخير ومعالجة الخلل وملاحظة الزلل، مدرسة الثلاثين يومًا يقوم طلابُها بتلقِّي علوم الأخلاق المثالية على يد أساتذة مثاليين، ليتخرج الإنسان فيها فاضلًا وصالحًا لتحقيق كمال العبودية والترقي في مراتب التقوى، فحقًا رمضان يصنعك.

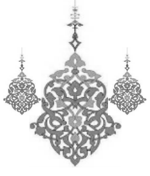
✍ **كتبه حامدًا ذاكرًا شاكرًا**

شريف فوزي سلطان

يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر من شهر المحرم
لسنة ١٤٤٧ من الهجرة النبوية

والحمد لله أولًا وأخيرًا

❊




[١]

رمضان يُرَبِّينا على اغتنام الفرص

فإنَّ من رحمة ربنا بنا، وإكرامه لنا، أن هيأ لنا في أيامنا فرصًا ومناسبات ومواسمَ ونفحات ورحمات، ندخل عليه منها، ونصل إليه من خلالها، هذه النفحات يصيب الله بها من يشاء بفضله ورحمته، قد تكون يومية، كثلث الليل الآخِر وغيره، وقد تكون أسبوعية، كيوم الجمعة وغيره، وقد تكون شهرية، كرمضان وغيره، وقد تكون سنوية، كالحج وغيره، وقد تكون عمُرية، فالسعيد من اغتنم مواسم العمُر قبل ذهابه، وحاسب نفسه قبل قراءة حسابه، وراقب ربه مراقبة من يعلم أنه يراه في ذهابه وإيابه.

هذه النفحات بلا شك ستصيب من يتعرض لها، أما الغافل عنها فلا عزاء له.

قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

* وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ الدَّهْرِ نَفَحَاتٌ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ نَفْحَةٌ فَلَا**




يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا»(١)

ألا وإنَّ من أعظم هذه النفحات التي إن أصابها العبدُ سعِد أبدًا، رمضانَ المعظم، أنعِم وأكرِم، بيومٍ واحدٍ منه.

وكم لفَت النبي ﷺ نظر أصحابه إلى هذا المعنى، وذكَّرهم بهذه النفحة، وحرَّضهم على اغتنامها، كان يُبشرهم بقدومه بشرى التشوق لرحماته وبركاته في كل ساعاته وأوقاته، كان يقول لهم: «**قَدْ جَاءَكُمْ رَمَضَانُ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ، فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا، فَقَدْ حُرِمَ**»(٢)

* وكان ﷺ يقول: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ**»(٣)

وكان يقول: «**إِذَا كَانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ**»(٤)

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

(٢) أخرجه أحمد، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر: تمام المنة.

(٣) صحيح سنن الترمذي.

(٤) صحيح سنن ابن ماجه.




* وحسبك قول الله تعالى ـ وهو يصف هذا الشهر المعظَّم ـ: ﴿ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ [البقرة:١٨٤]، فاغتنمها واستزد فيها من فعل الخيرات، فقد كان النبي ﷺ يدعو قائلًا: «**وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لي مِنْ كُلِّ شَرٍّ**»(١)

إنَّ اغتنام هذه الأيام لَدليلُ الحزم، وإنَّ انتهاز تلك الفرص لَعنوانُ العقل.

ومن الناس مَنْ قَلَّ نصيبه من التوفيق، فلا تراه يُلقي بالًا لحكمة الصوم، ولا لفضل الشهر، فتراه يَجعل من رمضان فرصةً للسهر واللهو الممتد إلى بزوغ الفجر، والنومِ العميق في النهار حتى غروب الشمس! ومن كان هذا صنيعَه فكيف يُرجى منه خيرٌ لنفسه ولا لغيره؟

مَن جعل أهدافه في الحياة هزيلة، وقيمته في الوجود رخيصة فوّت الفرص، وقضى حياته تلبيةً لنزواته ومتعه ولذائذه، فأكلت الأيام الضائعة حياتَه والسنون التائهة عمرَه، وسوف يقول يومًا ما: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤].

✍ الفرص قد لا تتكرر:

لَيْسَ فِي كُلِّ حَالَةٍ وَأَوَانِ .:. تَتَهَيَّا صَنَائِعُ الْإِحْسَانِ
فَإِذَا أَمْكَنَتْ فَبَادِرْ إِلَيْهَا .:. حَذِرًا مِنْ تَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ

---

(١) رواه مسلم.

فرمضان فرصة عظيمة، كان السلف رضي الله عنهم يترقبونها، ليقوموا بحقوقها، ويرتقوا في منازل الإيمان من خلالها، «كانوا يدْعون الله ستةَ أشهر أن يُبلِّغهم رمضان، ثم يدعونه ستةَ أشهر أن يتقبله منهم»(١)

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بلوغُ شهر رمضان وصيامُه نعمة عظيمة على من أقدره الله عليه، ويدلّ عليه حديث الثلاثة الذين استُشهد اثنان منهم، ثم مات الثالث على فراشه بعدهما، فرُئي في المنام سابقًا لهما، فقال النبيّ ﷺ: «أليس صلّى بعدهما كذا وكذا صلاة، وأدرك رمضان فصامه، فو الذي نفسي بيده، إنّ بينهما لأبعدَ ممّا بين السّماء والأرض»(٢)

من رُحم في رمضان فهو المرحوم، ومن حُرم خيره فهو المحروم، ومن لم يتزوّد فيه لمعاده فهو ملوم.

أتى رمضانُ مزرعةَ العباد ⁘ لتطهير القلوب من الفساد
فأدّ حقوقَه قولًا وفعلًا ⁘ وزادك فاتّخذه للمعاد
فمن زرع الحبوب وما سقاها ⁘ تأوّه نادمًا يوم الحصاد(٣)

فإن قيل: وكيف نغتنم الفرصة؟ وكيف نعيش رمضان؟

الجواب:

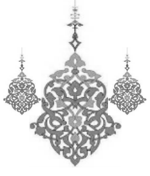
١- نحاول جاهدين تحقيق الإيمان والاحتساب، اللذَيْن أشار إليهما

---

(١) لطائف المعارف.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) لطائف المعارف.




النبي ﷺ حين قال: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١)، أي إيمانًا بفرضيته، طالبًا أجره من الله.

٢ـ نعتني بكتاب الله اعتناءً خاصًا، نضاعف التلاوة، نحرص على التدبر، ننوي أن نُفَعِّل القرآن في حياتنا.

٣ـ نعتني بالصلاة، نُسبغ وضوءها، نراقب وقتها، نحافظ على جماعاتها، نراعي خشوعَها وخضوعها، نحرص على تكبيرة الإحرام، والصف الأول، والسنن والرواتب، والأذكار.

٤ـ نحرص على إعلاء الإيمان في نفوسنا، ونفوس أهلينا، من خلال مجلسِ علمٍ يُعقدُ في البيت، يُقرأ فيه المختصر في تفسير القرآن الكريم(٢)، وشرح الأربعين النووية، وكتاب مختصر في السيرة النبوية، على أن نداوم على هذا المجلس بعد رمضان، لنستجلب البركة ويعمّ الخير، ويسُودَ الدِّين.

٥ـ كما نوسِّع على أنفسنا وأهلينا، نوسع كذلك على المحتاجين والمساكين، باحثين عمن لا يسألون الناس إلحافًا.

٦ـ حافظ على الأذكار المقيدة، وضاعف الأذكار المطلقة،(٣) وأعلِ همتك في الخير، وأرِ ربَّك من نفسك خيرًا، نهارًا وليلًا، فإن لله في كل ليلةٍ

---

(١) متفق عليه.

(٢) المختصر في تفسير القرآن الكريم: آية وتفسير، إن لم تستطع الحصول عليه، ستجده بي دي إف، على قناتي على التليجرام، قناة العلم والإيمان.

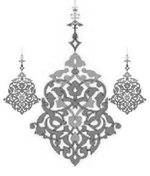
(٣) وطالع كتاب: إسعاف الجريح والجريحة بمعاني الأذكار الثابتة في السنة الصحيحة.

عُتقاء من النار، فاحرص أن تكون واحدًا منهم.

٧ـ اجعل نصيبك من الدعاء وافرًا على مَدارِ ساعات اليوم والليلة، لنفسك وأهلك، ولإخوانك المسلمين.

فاللهم بلِّغنا رمضان واجعلنا فيه من المقبولين الفائزين





[٢]

رمضان يُربِّينا على إخلاص الدين لله

فضائلُ رمضانَ عظيمة، وفوائدُ الصوم جسيمة، ولكن لمن قام بالشرط وحقق الوصف.

الشرط: الإخلاص، **والوصف**: الاتباع، فلا يصح عملٌ ولا يُقبل، ولا يَجد العبد أثره على قلبه وسلوكه وحالِه، إلا إذا حقق هذين:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك:٢]

قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: «أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ»، قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ: حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ»(١)

فبالإخلاص: تتحقق صحة الباطن، وبموافقة السنة تتحقق صحة الظاهر، وغير ذلك مردودٌ على صاحبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي.

فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، وهي الأعمال التي أريد بها غير وجه الله، أو التي كانت على غير السنة، وفي الحديث: أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: أرأيتَ رجلًا غزا يلتمس الأجرَ والذكرَ ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيءَ له**»، فأعادها ثلاث مرات، ويقول الرسول ﷺ: «لا شيء له»، ثم قال: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، وابتُغي به وجهه**»(١)

والإخلاص معناه: أن يقصد العبد بطاعته التقربَ إلى الله سبحانه دون أي شيء آخر؛ مِن تَصَنُّعٍ لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدحٍ من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى، ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين.(٢)

ـ وهذا المعنى العظيم: منسحبٌ على كل عملٍ يقوم به العبد مما يَتقرب به إلى الله، ومع ذلك أكَّد عليه النبي ﷺ تأكيدًا خاصًا في معرِض كلامه عن الصوم، فقال:

* «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٣).

* وقال: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٤).

* وقال: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٥).

---

(١) صحيح أبي داود والنسائي.
(٢) الرسالة القشيرية.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.




ومَعْنَى «إِيمَانًا»: تَصْدِيقًا بِأَنَّهُ حَقٌّ مُعتقدًا فَضِيلَتَهُ، وَمَعْنَى «احْتِسَابًا»: أَنْ يُرِيدَ اللهَ تَعَالَى وَحْدَهُ، لَا يَقْصِدُ رُؤْيَةَ النَّاسِ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُخَالِفُ الْإِخْلَاصَ.(١)

قَالَ الْخَطَّابِيّ: اِحْتِسَابًا أَيْ عَزِيمَة، وَهُوَ أَنْ يَصُومَهُ عَلَى مَعْنَى الرَّغْبَة فِي ثَوَابِهِ طَيِّبَةً نَفْسُهُ بِذَلِكَ غَيْرَ مُسْتَثْقِل لِصِيَامِهِ وَلَا مُسْتَطِيلٍ لِأَيَّامِهِ، لَكِنْ يَغْتَنِمُ طُولَ أَيَّامِهِ لِعِظَمِ الثَّوَابِ.(٢)

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: كلُّ عملِ ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به...**»(٣)

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: كفى بقوله: «إلا الصيام فإنه لي» فضلًا للصيام على سائر العبادات.(٤)

وقد اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: «الصيام لي وأنا أجزي به» على أقوال:

منها: أنه لم يُعبَد أحدٌ غيرَ الله تعالى بهذه العبادة (الصيام)، فلم يعظِّم الكفار في عصر من العصور معبودًا لهم بالصيام، وإن كانوا يعظِّمونه ويتقربون إليه بالصلاة، والسجود، والصدقة، والذكر، والخوف والرجاء، وغير ذلك.

---

(١) شرح النووي على مسلم.
(٢) شرح السنة للبغوي.
(٣) متفق عليه.
(٤) فتح الباري.




وقيل: لأن الصوم بعيد عن الرياء لخفائه، بخلاف الصلاة، والحج، والغزو، والصدقة، وغيرها من العبادات الظاهرة، فالصوم لا يظهر من ابن آدم في قول ولا عمل، وإنما هو نية ينطوي عليها صاحبها ولا يعلمها إلا الله، وليست مما تظهر، فتكتبها الحفظة كما تكتب الذكر والصلاة والصدقة والحج وسائر الأعمال.

وقيل: لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ، وقيل غير ذلك.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جميع العبادات تَظهر بفعلها، وقَلَّ أن يَسلم ما يظهر من شَوْب، بخلاف الصوم.(١)

وقيل: كل عمل ابن آدم له: أي له أجر محدَّد، إلا الصوم فأجره بدون حساب، ويشهد لهذا المعنى رواية مسلم: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعفُ له، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إلى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **إلا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي....**»

فيأتي الصَّوم لينمِّيَ فينا هذا المعنى، ويُحَبِّبَ إلينا الإخلاص ، ويكونَ سببًا لخلاصنا وطهارتنا من الرياء.

تجديد النية، واستحضار الإخلاص:

هذا وقد علَّمنا النبيُّ ﷺ أن نجدد النية ونستحضر الإخلاص في كل صلاة، لنراعيه في سائر شؤوننا ، فكان مِن ضِمن استفتاحاته في صلواته: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ،**

---

(١) انظر شرح النووي على مسلم، وفتح الباري. [مختصرًا]




إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ»(١)

لأن الإسلام لا يرضى للمسلم أن يعيش بوجهين، ولا أن تنقسم حياته إلى شطرين: شَطرٍ لله وشطرٍ للطاغوت، الإسلام يرفض الثنائية المقيتة، والازدواجية البغيضة، التي نشهدها في حياة المسلمين اليوم، فنجد الرجلَ مسلمًا في المسجد، أو في شهر رمضان، ثم هو في حياته، أو في معاملاته، أو في مواقفه إنسانٌ آخر، الإخلاص هو الذي يوحِّد حياة المسلم، ويجعلُها كلَّها لله، كما يجعله كله لله، فصلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين.

فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه الكريم ، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»**(٢)

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جِرابه رملًا يُثقله ولا ينفعه»(٣)

وأخيرًا: اعلم أن العملَ مهما كان قليلًا، فإن النية الصالحة تُعظِّمُه، والله تعالى يباركه ويضاعف أجرَه، كما قال صلى الله عليه وسلم ـ لسعد بن أبي وقاص ـ: «وَلَسْتَ بِنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا آجَرَكَ اللهُ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الفوائد.

امْرَأَتِك»(١)

وفي المقابل: قد يكون العمل كبيرًا ضخمًا، لكنَّه يورد صاحبَه المهالك، بسبب خُلُوِّه من الإخلاص، فعن عُقْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ، أَنَّ شُفَيًّا الأَصْبَحِيَّ، حَدَّثَهُ أَنَّهُ، دَخَلَ المَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَغَ(٢) أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً فَمَكَثْنَا قَلِيلًا ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي هَذَا البَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فَمَسَحَ وَجْهَهُ فَقَالَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا وَهُوَ فِي هَذَا البَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَنَّ اللهَ تبارك وتعالى إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى العِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ القُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ، فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ**

---

(١) متفق عليه.

(٢) أي غُشِي عليه.




أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ، وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ»، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رُكْبَتِي فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١)

فاللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، ومسّكنا بالإسلام حتى نلقاك



---

(١) صحيح سنن الترمذي، وأصل الحديث عند مسلم.




[٣]

رمضان يُربِّينا على اتباع النبي ﷺ، والاهتداء بهديه

فقد عرفنا فيما سبق أن: «الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ: حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ»(١)

فإن أردتَّ القبول في رمضان، وتزكيةَ نفسِك فيه، فاحرص أن يكون صومُك وفطرُك وقيامُك وذكرُك ودعاؤُك وتلاوتُك، وسائرُ عملك وِفق سنة النبي ﷺ.

وليس ذلك بنفل من العمل، وإنما هو واجبٌ على الأمة، فإن الله تعالى أمر عباده باتباع نبيه ﷺ، وأوجب عليهم طاعته، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بالتعرف على هديه ﷺ في شأنه كافة، فإن هديَه أعظمُ الهَدْيِ وأكملُه وأحسنه، وكلما حرَص العبد على اتباعه ﷺ كلما اقترب من الكمال والعلا، وحسبك قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ورمضان فرصة عظيمة لتحقيق هذا الأمر.

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي.





١.كان ﷺ يستعد لرمضان قبل قدومه:

* **كما قالت عائشة** رضي الله عنها: «لم أره صائمًا من شهرٍ قط أكثرَ من صيامه من شعبان، كان يصوم شعبان كله، كان يصوم شعبان إلا قليلًا»(١)

٢.وكان ﷺ يُبشِّر أصحابه بقدومه:

* وقد سبقت الإشارة إلى هذا المعنى، كان يقول لأصحابه: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدت الشياطين ومردةُ الجن، وغُلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتِحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل! ويا باغي الشر أقصر! ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة**»(٢)

٣.وكان ﷺ لا يدخل رمضان إلا برؤية شاهد أو إتمام عدةِ شعبان ثلاثين:

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «تراءى الناسُ الهلالَ فأَخبرتُ رسول الله ﷺ أني رأيته فصامه، وأمر الناس بصيامه»(٣)

٤.وكان يبيِّت النِّيةِ قبل الفجر:

* وهذا شرطٌ في صِحَّةِ صومِ الفريضةِ، لقوله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يُبَيِّتِ الصِّيَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ، فَلَا صِيَامَ لَهُ**»(٤)

---

(١) رواه مسلم.
(٢) صحيح سنن الترمذي.
(٣) صحيح أبي داود.
(٤) صحيح سنن النسائي.

* أما النفل فلا يُشترط فيه تبييتُ النية، لحديثِ عائشةَ ﵂، قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟**» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**فَإِنِّي صَائِمٌ**»(١)

٥. وكان يأمر بالسَّحور، ويحثُّ على تأخيره، ويحث على تعجيل الفطر:

* عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»(٢)، وكان يقول: «**تسحروا ولو بجرعة ماء**»(٣)

* وعن أنسٍ عن زيد بن ثابت ﵁ قال: «تسحرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة، قلت: كم كان بين الأذان والسَّحور؟ قال: قدر خمسين آية»(٤)

* وعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر**»(٥)

٦. وكان يُفطر على رُطبات؛ فَإِنْ لَمْ يَكنْ فتمراتٌ؛ فَإنْ لم يَكُنْ فَعَلى مَاءٍ:

* عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبَاتٌ، فَتَمَرَاتٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَمَرَاتٌ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ»(٦)

---

(١) صحيح سنن النسائي.
(٢) رواه البخاري.
(٣)(٣) صحيح ابن حبان، وانظر صحيح الجامع.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) أخرجه أحمدُ في مسنده بإسناد صحيحٍ.



٧ - وكان يقول بعد الإفطار:

❊ «ذهب الظَّمأ، وابتلَّتِ العرُوقُ، وثبَتَ الأجرُ إن شاء الله»(١)

٨. وكان يصبُّ الماء على رأسه وهو صائم:

❊ كما في حديث أبي بكر بن عبد الرحمن، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: «لقد رأيتُ رسول الله ﷺ بالعرْج يَصب على رأسه الماء وهو صائم من العطش أو من الحر»(٢)

٩. وكان ﷺ يُفطِّر الصَّائمينَ:

❊ وكان يقول: «مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا»(٣)

١٠. وكان يحث أصحابه على احتساب الثواب من الله:

❊ فكان يقول: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٤)، وكان يقول: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٥)

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه بإسناد حسن منْ حديثِ ابنِ عُمرَ رضي الله عنه.

(٢) صحيح سنن أبي داود.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه بإسنادٍ صحيحٍ مِنْ حديثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.




١١. وكان ﷺ لا يزيد في قيامه في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة:

❋ فعن عائشة قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة»(١)

❋ وسئلت رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله في رمضان؟ فقالت: «ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة: يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا، فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: «**يا عائشة! إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي**»(٢)

❋ وكان يحث أصحابه على إتمام القيام مع الإمام، فكان يقول: «**إِنَّهُ مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ**»(٣)

١٢ -وكان ﷺ حريصًا على دعاء ربه ومناجاته، طوال اليوم:

❋ وهو القائل ﷺ، كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: «**ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ لاَ تُرَدُّ: دَعْوَةُ الْوَالِدِ، وَدَعْوَةُ الصَّائِمِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ**»(٤)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) صحيح سنن الترمذي.

(٤) أخرجه البيهقي في الدعوات الكبير، وانظر السلسلة الصحيحة.



١٣.وكان ﷺ يسافر في رمضان، فيصوم أحيانًا، ويُفطِر أخرى:

* فعن طاووس، أن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «سافر رسول الله ﷺ في رمضان فصام حتى بلغ عُسْفان، ثم دعا بإناء من ماء فشرِب نهارًا ليراه الناس، فأفطر حتى قدم مكة، قال: وكان ابن عباس يقول: صام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر، فمن شاء صام ومن شاء أفطر»(١).

١٤ - وكان ﷺ يكثر مِنْ تِلاوةِ القرآنِ ومُدارستهِ؛ وكان يعظُمُ جودُه وبذلُه، وكان ينشَطُ لجميع أبواب الخير:

* فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ، حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ القُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ أَجْوَدَ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»(٢)

فإذا كان هذا الحرص وتلك العناية بمدارسة القرآن ممن جمع الله له القرآن في صدره، وتولى تفهيمه إياه، فما أحوجنا إلى مثل هذه المدارسة لننعم بهداية القرآن الكريم!

١٥ - وكان ﷺ يحث على العمرة في رمضان، ويرغِّب فيها:

* فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حَجَّتِهِ قَالَ لِأُمِّ سِنَانٍ الأَنْصَارِيَّةِ: «**مَا مَنَعَكِ مِنَ الحَجِّ؟**»، قَالَتْ: أَبُو فُلاَنٍ، تَعْنِي زَوْجَهَا، كَانَ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.




لَهُ نَاضِحَانِ حَجَّ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَالآخَرُ يَسْقِي أَرْضًا لَنَا، قَالَ: «**فَإِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ حَجَّةٌ مَعِي**»(١)

١٦ - وكان يعتكف العشرَ الأواخرَ:

* فعن عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ»(٢).

* وقالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدَّ وشدَّ المئزر»(٣)

* وكان يأمرُ بأنْ يُضربَ له خِبَاء في المسجدِ يلزمُه، ويخلو بربِّه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، يَعْتَكِفُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَكُنْتُ أَضْرِبُ لَهُ خِبَاءً فَيُصَلِّي الصُّبْحَ ثُمَّ يَدْخُلُهُ»(٤)، **قال ابن القيم**: «كل هذا تحصيلًا لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجُهَّال من اتخاذ المعتكف موضع عشرةٍ ومجلبةً للزائرين، وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم، فهذا لون، والاعتكاف النبوي لون، والله الموفق»(٥)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) زاد المعاد.

* وكان لا يخرج من معتكَفه إلا لحاجة، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان ﷺ لا يدخل البيت إلا لحاجة، إذا كان معتكفًا»(١)

* وكان يأمر بتَحَرِّي ليلةِ القدرِ في الوترِ من العشرِ الأواخرِ، كان يقول: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»(٢)

* وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَرَأَيْتَ لَوَ عَلِمْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا كُنْتُ أَدْعُو بِهِ؟ قَالَ: «تَقُولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»(٣)

فاللهم ارزقنا حب نبيك، وحب الاقتداء به، واجعلنا رُفقاءَه في الجنة



---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح سنن الترمذي.




[٤]

رمضان يُربِّينا على المحافظة على الوقت واستغلاله

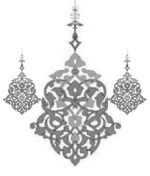
لأن الله تعالى وصف رمضان، فقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:١٨٤]، أي قلائل، وقال: معدودات؛ لأن الشيء القليل يُعدُّ عدًّا، رغم أن عمُر الإنسان كلَّه قليل بالنسبة لسائر الزمن، لكنْ: كأن الله تعالى يُلفتُ أنظارنا إلى معنىً عميق، وهو أنك إذا حرَصت على اغتنام أيام رمضان المعدودات، فسوف تحرص على اغتنام سائر أيام عمرك المعدودات.

رمضان مقياس:

فمن أضاع وقته في رمضان، فقد ظلم نفسَه، وكان لسائر عمُرِه أكثرَ تضييعًا، كما أن من قصرَّ في رمضان فهو في غيره أكثرُ تفريطًا وتقصيرًا.

لأنه زمنٌ شريف، حرمته الزمانية كحرمة الحرَم المكانية، وقد عُرِفت هذه الحرمة من نزول كلام الله كلِّه فيه، القرآن والتوراة والإنجيل وصحُف إبراهيم، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]

* وفي حديث وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أُنزِلَتْ صُحُفُ إبراهيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ وأُنْزِلَتِ التَّوْراة لِسِتٍ مَضَتْ مِنْ**




رَمَضانِ وأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثلاث عَشرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضانَ وأُنْزِلَ الزَّبورُ لِثَمانِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضانَ وأُنْزِلَ القُرْآنُ لأَرْبَعٍ وعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضانَ»(١)

فحُقَّ لشهرٍ تنزلت فيه كتُبُ الله، هدايةً للإنسان، أن تكون لأوقاته حِشمةٌ وحُرمة، فمن عرف ذلك وقام به، تعوَّد عليه وتنعَّم به.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العَبْدُ مِنْ حِيْنِ اسْتَقَرَّتْ قَدَمُهُ فِي هَذِهِ الدَارِ فَهُوَ مُسَافِرٌ فِيْهَا إِلى رَبِّهِ، وَمُدَّةُ سَفَرِهِ عُمْرُهُ والأَيَّامُ واللَّيالِي مَرَاحِلُ فَلَا يَزَالُ يَطْوِيْهَا حَتّى يَنْتَهِي السَّفَرُ، فالكَيِّسُ لَا يَزَالُ مُهْتَمًا بِقَطْعِ المَرَاحِلِ فِيْمَا يُقَرِّبُهُ إِلى اللهِ لِيَجِدَ مَا قَدَّمَ مُحْضَرًا، ثُمَّ النّاسُ مُنْقَسِمُونَ إِلى أَقْسَامٍ:

١ـ مِنْهُمْ مَنْ قَطَعَهَا مُتَزَوِّدًا بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلى دَارِ الشَّقَاءِ مِنْ الكُفْرِ وَأَنْوَاعِ المَعَاصِيْ.

٢ـ وَمِنْهُمْ مَنْ قَطَعَهَا سَائِرًا فِيْهَا إِلى اللهِ وإِلى دَارِ السَّلامِ، وَهُمُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١ـ سَابِقُوْنَ أَدَّوْا الفَرَائِضَ وأَكْثَرُوْا مِنْ النَّوَافِلِ بأنْوَاعِهَا، وَتَرَكُوْا المَحَارِمَ، والمَكْرُوْهَاتِ وفُضُولَ المُبَاحَاتِ.

٢ـ ومُقْتَصِدُوْنَ أَدَّوْا الفَرَائِضَ وتَرَكُوْا المَحَارِمَ.

٣ـ ومِنْهُمْ الظَالِمُ لِنَفْسِهِ الَّذِي خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا وهُمْ فِي ذَلِكَ دَرَجَاتٌ يَتَفَاوَتُوْنَ تَفَاوُتًا عَظِيْمًا»(٢)

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

(٢) نقلًا عن: موارد الظمآن لدروس الزمان.

يـا مُـذهبًا سـاعات عمُـرٍ مـا لهـا .:. عِـوضٌ، ولـيس لفوتهـا إرجـاعُ

أنفقـتَ عمُـرَك في الخَسـارِ وإنـه .:. وجَـعٌ سـتأتي بعـده أو جـاعُ

والعبد مسؤولٌ عن عمُره:

فلقد كثُرت النصوص عن النبي ﷺ في بيان أهمية الوقت والحث على اغتنامه وعدم إضاعته، وبيان أن العبد مسؤول عنه يوم القيامة.

* فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»(١)

* وعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامَة حتى يُسْأَلَ عن أربَعٍ: عن عُمُرِهِ فيمَ أفْناه؟ وعن عِلْمِه ماذا عَمِلَ بِه؟ وعَنْ مالِه مِنْ أيْنَ اكْتَسَبَهُ، وفيمَ أنْفقَهُ؟ وعنْ جِسْمِه فيمَ أبْلاهُ؟**»(٢).

* وقال ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ؛ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»(٣)

وكان عليٌّ رضي الله عنه: «ارْتَحَلَتْ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَتْ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ؛ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»(٤)

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، وانظر صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح سنن الترمذي.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري في صحيحه معلقًا.




قال الحسن البصري: «أدركت أقوامًا كانوا على أوقاتهم أشدَّ منكم حرصًا على دراهمكم ودنانيركم»(١)

قال عبد الله بن مسعود: «ما ندمتُ على شيء، ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزدد فيه عملي»(٢)

وقد قيل: «كما أنَّ الليل وَالنهار يَعملان فيك، فَاعمل فيهما»(٣)

فلنغتنم في هذا الشهر المبارك كل ما يمكننا اغتنامه من الطاعات، ولنسخره في الإقبال على الله، لنغتنم حياتنا كلها قبل أن يباغتنا الموت، ليغتنم الأَصِحَّاء الذين عافاهم الله من الأمراض والأدواء عافيتهم وصحتهم قبل أن يبتليهم الله بأمراض تعوقهم وتُضعف نشاطهم، ليغتنم الذين حباهم الله بنعمة الوقت والفراغ وقتهم وفراغهم قبل أن تداهمهم الأشغال والهموم والصوارف، ليغتنم الشباب شبابهم وقوَّتهم قبل أن يصيبهم الكِبَر الذي هو مظنة الضعف والفتور والأمراض، ليغتنم الأغنياء الذين وسَّع الله لهم في أرزاقهم قبل أن ينزل عليهم الفقر أو تُلِمَّ بهم الحاجات، لنغتنم هذه الأيام العظيمة، لنزداد فيها قربًا من الله ونتعرض فيها لنفحات الله.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار.

(٢) السابق.

(٣) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا.

تصيبه نفحة من تلك النفحات فيَسعُد بها سعادةً يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات»(١)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إضاعة الوقت أشد من الموت؛ لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها»(٢)

ومما أُثِر عن السلف: «من علامة المقت إضاعة الوقت»

الوقت رأس مال المسلم في هذه الدنيا، وهو أنفس من المال وأغلى من الذهب والفضة، وهو كالنفَس سريع الانقضاء عديم الرجوع، فيا لخسارة من أضاع وقته في الغفلة والملهيات، وفرَّط في طاعة رب الأرض والسماوات.

مقترح ليوم المسلم في شهر رمضان:

١ـ يبدأ المسلم يومه بالسَّحور قبل صلاة الفجر، والأفضل أن يؤخر السحور إلى أقصى وقت ممكن من الليل.

٢ـ يستعد المسلم لصلاة الفجر قبل الأذان، فيتوضأ في بيته، ويخرج إلى المسجد.

٣ـ فإذا دخل المسجد صلى ركعتين (تحية المسجد)، ثم يشتغل بالدعاء، أو بقراءة القرآن، أو بالذكر، حتى يؤذن المؤذن، فيردد مع المؤذن ويقول ما ورد عن النبي ﷺ بعد الفراغ من الأذان، ثم بعد ذلك يصلي ركعتين (راتبة

---

(١) وظائف رمضان.

(٢) الفوائد.




الفجر)، ثم يشتغل بالذكر والدعاء وقراءة القرآن إلى أن تُقام الصلاة، وهو في صلاةٍ ما انتظر الصلاة.

٤- بعد أن يؤدي الصلاة مع الجماعة، يأتي بالأذكار التي تشرع عقب السلام من الصلاة، ثم بعد ذلك إن أحب أن يجلس إلى أن تطلع الشمس في المسجد مشتغلًا بالذكر وقراءة القرآن فذلك أفضل، وهو ما كان يفعله النبي ﷺ بعد صلاة الفجر.

٥- ثم إذا طلعت الشمس وارتفعت ومضى على شروقها نحو ربع ساعة، فإن أحب أن يصلي صلاة الضحى (أقلها ركعتان) فذلك حسن، وإن أحب أن يؤخرها إلى وقتها الفاضل وهو عند ارتفاع الشمس فهو أفضل.

٦- ثم إن أحب أن ينام ليستعد للذهاب إلى عمله، فلينو بنومه ذلك التَّقوِّي على العبادة وتحصيل الرزق، كي يؤجر عليه إن شاء الله تعالى، وليحرص على تطبيق آداب النوم الشرعية العملية والقولية.

٧- ثم يذهب إلى عمله، فإذا حضر وقت صلاة الظهر، ذهب إلى المسجد مبكرًا، قبل الأذان أو بعده مباشرة، وليكن مستعدًا للصلاة مسبقًا، فيصلي أربع ركعات بسلامين (راتبة الظهر القبلية)، ثم يشتغل بقراءة القرآن إلى أن تقام الصلاة، فيصلي مع الجماعة، ثم يصلي ركعتين (راتبة الظهر البعدية).

٨- ثم بعد الصلاة يعود إلى إنجاز ما بقي من عمله، إلى أن يحضر وقت الانصراف من العمل، فإذا انصرف من العمل فإن كان قد بقي وقتٌ طويل على صلاة العصر ويمكنه أن يستريح فيه، فليأخذ قسطًا من الراحة، وإن كان




الوقت غيرَ كافٍ ويخشى إذا نام أن تفوته صلاة العصر فليُشغل نفسه بشيء مناسب حتى يحين وقت الصلاة.

٩- ثم بعد العصر ينظر الإنسان إلى حاله، فإن كان بإمكانه أن يجلس في المسجد ويشتغل بقراءة القرآن فهذه غنيمة عظيمة، وإن كان الإنسان يشعر بالإرهاق، فعليه أن يستريح في هذا الوقت، كي يستعد لصلاة التراويح في الليل.

١٠- وقبل أذان المغرب يستعد للإفطار، وليُشغل نفسه في هذه اللحظات بشيء يعود عليه بالنفع، إما بقراءة قرآن، أو دعاء، أو حديث مفيد مع الأهل والأولاد.

١١- ثم بعد الإفطار يذهب للصلاة في المسجد مع الجماعة، وبعد الصلاة يصلي ركعتين (راتبة المغرب)، ثم يعود إلى البيت ويأكل ما تيسر له – مع عدم الإكثار –، ثم يحرص على أن يبحث عن طريقة مفيدة يملأ بها هذا الوقت بالنسبة له ولأهل بيته، كالقراءة من كتاب قصصي، أو كتاب أحكام عملية، أو مسابقة، أو حديث مباح، أو أي فكرة أخرى مفيدة تتشوق النفوس لها، وتصرفها عن المحرمات التي تُبث في وسائل الإعلام، والتي يعد هذا الوقت بالنسبة لها وقت الذروة، فتجدها تَبث أكثر البرامج جذبا وتشويقا، وإن حوت ما حوت من المنكرات العقدية والأخلاقية، فاجتهد يا أخي في صرف نفسك عن ذلك، واتق الله في رعيتك التي سوف تسأل عنها يوم القيامة، فأعد للسؤال جوابًا.

١٢- ثم استعد لصلاة العشاء، واتجه إلى المسجد، فاشتغل بقراءة القرآن، أو بالاستماع إلى الدرس الذي يكون في المسجد.

١٣- ثم بعد ذلك أدِ صلاة العشاء، ثم صلِ ركعتين (راتبة العشاء) ثم صلِّ التراويح خلف الإمام بخشوع وتدبر وتفكر، ولا تنصرف قبل أن ينصرف الإمام.

١٤- ثم اجعل لك برنامجًا بعد صلاة التراويح يتناسب مع ظروفك وارتباطاتك الشخصية.

١٥- ثم احرص على أن تنام مبكرًا، مع الإتيان بالآداب الشرعية للنوم العملية والقولية، وإن قرأت قبل النوم شيئًا من القرآن أو من الكتب النافعة فهذا أمر حسن، لا سيما إن كنت لم تُنهِ وردك اليومي من القرآن، فلا تنم حتى تُنهِه.

١٦- استيقظ قبل السحور بوقتٍ كافٍ للاشتغال بالدعاء، فهذا الوقت - وهو ثلث الليل الأخير - وقت النزول الإلهي، وقد أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على المستغفرين فيه، كما وعد الداعين فيه بالإجابة والتائبين بالقبول، فلا تدع هذه الفرصة العظيمة تفوتك.

١٧- اجعل ليوم الجمعة برنامجًا خاصًا في العبادة والطاعة، يراعى فيه ما يلي:

- التبكير في الحضور إلى صلاة الجمعة.

- البقاء في المسجد بعد صلاة العصر، والاشتغال بالقراءة والدعاء حتى

الساعة الأخيرة من هذا اليوم، فإنها ساعة تُرجى فيها إجابة الدعاء.

ـ اجعل هذا اليوم فرصةً لاستكمال بعض أعمالك التي لم تُتمَّها في وسط الأسبوع، كإتمام الورد الأسبوعي من القرآن، أو إتمام قراءة كتاب، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة.

١٨ـ ضعْ برنامجًا خاصًا بالعشر الأواخر من رمضان، واجعل في أساسياته الاعتكاف ما أمكنك ذلك.

١٩ـ يمكنك التعديل في هذا الجدول بحسب ظروفك الخاصة.

٢٠ـ اجعل الإكثار من العبادة والتقرب إلى الله هو همَّك الأول في هذا الشهر المبارك.

فاللهم وفِّقنا لاغتنام الأوقات في عمل الصالحات






[٥]

رمضان يُربِّينا على التخلص من الترف والسَّرف

وهذا مطلب شرعي أصيل؛ قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، فإن السرف يبغضهُ اللهُ تعالى، وهو مع ذلك يضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه مِن النفقات.(١)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٧]، فالتبذير أشد من الإسراف.

فإن قيل: وما الفرق بين التبذير والإسراف؟

الجواب: أن التبذير يَعني: صرف الأموال في غير حقِّها؛ إمَّا في المعاصي، وإما في غير فائدة؛ لعبًا بالأموال وتهاونًا بمسؤوليتها، أمَّا الإسراف: فهو الزيادة في الطعام والشراب واللِّباس، في غير حاجةٍ.

قال تعالى ـ في وصف عباد الرحمن ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان:٦٧]

---

(١) تفسير السعدي.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي ليسوا بمبذِّرين في إنفاقهم، فيَصرِفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصِّرون في حقِّهم فلا يَكْفُونهم؛ بل عدلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا»(١)

وقال ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ**»(٢)

وأكثر الناس لم يفهم هذا المعنى في الصوم: فتراهم يمتنعون عن الطعام نهارًا، حتى إذا أقبل الليل انقضُّوا على الطعام بِنَهَم، وأخذوا بنصيبهم الذي ضاع منهم نهارًا، حتى أصبح رمضان شهر الإسراف، وهذا بلا شك يتنافى مع معنى الصيام.

فالأصل الذي ينبغي أن يكون عليه العمل: أن رمضان شهرُ الاقتصاد، والعمل والقرْب من الله، والقيام والتهجد، والمحافظة على الأوقات، واغتنام اللحظات.

والإسراف في رمضان له صورٌ عديدة:

أشهرها ثلاثة:

١ - الإسراف في الطعام والشراب:

كثيرٌ من الناس وهم يستقبلون رمضان، يُشعرونك بأن الله تعالى إنما شرع لهم الصيام ليأخذوا حظَّهم من الطعام والشراب، يحسِبون له ألف

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) رواه البخاري.




حساب! تُضيِّع المرأة وقتها الثمين في هذا الشهر في إعداد الطعام الذي يبدأ من الظُّهر حتى أذان المغرب، وعنده تجد المائدة مملوءةً بما لذَّ وطاب، مما زاد عن الحاجة، مما يجعله عُرضةً للإتلاف، فتجد الاستهلاك يزيد، والأوزان تزيد! فنخرج من الصيام وما حقَّقْنا معنى الصوم، ولا حصَّلنا التقوى!

هذا وقد حذَّر النبيُّ ﷺ من الشِّبع ونفَّر من التخمة، فقال: «**مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعاءً شرًّا من بَطْنِه، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكْلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**»(١)

قال بعض السلف: «جمع الله الطبَّ كلَّه في نصف آية، هي: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف:٣١]»(٢) ذلك لأن التخمة عند الإفطار تُفقِد المسلمَ حلاوة المناجاة، ولذَّةَ العبادة والذِّكر.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من كثر أكلُه، لم يجد لذِكرِ الله لذةً»(٣)

وقال إبراهيم بن أدهم: «مَن ضبَط بطنَه ضبَط دينَه، وإن معصية الله بعيدة من الجائع، قريبةٌ من الشبعان»(٤)

وقال لقمان: «يا بُنيَّ، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخَرِسَتِ

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني.
(٢) أضواء البيان.
(٣) الحلم، لابن أبي الدنيا.
(٤) جامع العلوم والحكم.




الحكمة، وقعَدت الأعضاء عن العبادة»(١)

وقال بعض الحكماء: من كثر أكله كثر شربه ومن كثر شربه كثر نومه ومن كثر نومه كثر لحمه ومن كثر لحمه قسا قلبه ومن قسا قلبه غرق في الآثام، وهذه القسم غلبت عليه عادة الناس.

فوا عجبًا أن يتحوَّل شهر الصيام إلى أكل وشرب وتسوُّق.

٢.الإسراف في النوم:

خاصة في النهار، والمُحزِن أن هؤلاء يسرفون في سهرٍ لا طائل من ورائه! وقد يكون سهرًا محرَّمًا في القيل والقال، والسهرات الرمضانية المليئة بالمعاصي على مختلف أشكالها، ثم يأتي أحدهم بعد السهر الطويل ليتسحَّر، ثم ينام قبل الفجر، ولا يستيقظ إلا قرب العصر ، فيحلُم أنه صام رمضان، وهذا من عدم فقه المرء بلحظاتِ ودقائق رمضان الغالية، التي قال عنها القرآن: ﴿ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة:١٨٤]، تمرُّ كالبرق الخاطف أو كلمح البصر، ولا يُمكِن تعويضُها.

ألقاهُ شهرًا لكن في نهايتِه ∴ يمضي كطَيفِ خيالٍ قد لَمَحْناهُ

٣.الإسراف في تضييع الأوقات:

وهذا من أغرب ما يكون ، فبدلًا من تعمير الأوقات بالطاعات، واغتنام اللحظات، نرى قومًا يتفنَّنون في ضياع أوقاتهم!

---

(١) سبل السلام، للصنعاني.




أين نحن من السلف الصالح الذين كانوا يحرصون على أوقاتهم كحرصِنا على أموالنا، فلا يضيعون لحظة في غير طاعة؟

قال الحسن: «أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانَ أَحَدُهُمْ أَشَحَّ عَلَى عُمُرِهِ مِنْهُ عَلَى دَرَاهِمِهِ وَدَنَانِيرِهِ»(١)

* وقد حثَّنا النبي ﷺ على استثمار أوقاتنا، لأن الله تعالى سائلنا عنها، محاسبنا عليها، فقال: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قبلَ خَمْسٍ: شبابَكَ قبلَ هَرمِكَ، وصِحَّتَك قبل سَقْمِكَ، وغِناكَ قبْلَ فقرِك، وفراغَك قَبْلَ شُغْلِكَ، وحياتَك قَبْلَ مَوْتِكَ**»(٢)

فالمؤمن حريصٌ على وقتِه، يخطط له، يغتنمه في التقرب إلى الله والتماس رضاه، لأنه يعلم أن الوقت هو الحياة.

فالوقتُ أثمَنُ ما عُنيتَ بحفظِه ∴ وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ

فمن أراد أن يفوز برمضان، ويستشعر حلاوة الإيمان، ويتمتع بقراءة القرآن، ويتلذذ بطول القيام؛ فليتجنب السرف بسائر ألوانه، فالإفراط شرٌّ كلُّه، وهو في المآكل والمشارب سببٌ لكثير من الأمراض، ومدعاة للكسل والفتور عن الطاعة والعبادة.

ذكر البيهقي ـ كما في شعب الإيمان ـ عن الحَليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنه قال**: «وكل طعامٍ حلالٍ، فلا ينبغي لأحد أن يأكل منه ما يُثقل بدنه، فيُحوجه إلى النوم،

---

(١) الزهد والرقائق لابن المبارك.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب.




ويمنعه من العبادة، وليأكل بقدر ما يَسكُن جوعُه، وليكن غرضُه من الأكل أن يشتغل بالعبادة ويقوى عليها»

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يجعل أحدُكم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة!»(١)

فعلى الإنسان أن يقتصد في مطعمه ومشربه وملبسه، وهذه من أخلاق النبوة، ففي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**إن الهدْيَ الصالح، والسَّمْتَ الصالح، والاقتصادَ، جزءٌ من خمسةٍ وعشرين جزءًا من النبوة**»(٢)

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال، فقد حصل فيه جزءٌ من خمسة وعشرين جزءًا مما جاء به النبيون.

فاللهم وفقنا لما تحب وترضى



(١) إحياء علوم الدين.

(٢) صحيح سنن أبي داود.





[٦]

رمضان يُربِّينا على التدرُّب على التقوى وتحقيقها

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]

ففي هذه الآية الكريمة يتضح جليًا أن من مقاصد الصوم العظمى، ومن غاياته الكبرى، التقوى، وهذا يحتاج منا إلى استشعار هذا المقصد العظيم واستحضاره على مدار يومنا في نهارنا وليلنا في هذا الشهر العظيم، حتى نَخرج من رمضان وقد صارت التقوى خُلُقًا لنا.

قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه ، فمِمَّا اشتمل عليه من التقوى:

ـ أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التي تميل إليها نفسه ؛ متقربًا بذلك إلى الله راجيًا بتركها ثوابه ، فهذا من التقوى.

ـ ومنها: أن الصائم يدرِّب نفسه على مراقبة الله تعالى ، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

ـ ومنها: أن الصيام يُضيِّق مجاري الشيطان ، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يَضعف نفوذه، وتقِل منه المعاصي.

ـ ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى.

ـ ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساةَ الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى»(١)

فثمَّة ارتباطٌ كبيرٌ بين التقوى والصوم، فهي حِكمةٌ من حِكمه وأثرٌ من آثاره، وبهذا يتبيَّنُ لنا خللُ من صام ولم يستشعر هذا المعنى، ولم يحقق هذا المغزَى، ظنًا منه أن الصومَ مجردُ امتناعٍ عن الطعام والشراب والزوجة ـ إن وُجدت ـ وقُضِي الأمر!

لا يا صاحبي! الصوم تقوى لله، وقد أحسن من ذهب من المفسرين إلى أن معنى قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون المعاصي، لأن الصائم أردعُ لنفسه، فإنَّ الصوم يكسرُ الشهوة ويُضعِف دواعي المعصية، وفيه تضييقٌ لمسالك الشيطان، أو لعلكم تَنتظِمون في زُمرة المتَّقين، فإنَّ الصوم شعارُهم.(٢)

ويؤكِّد هذا المعنى ما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاءٌ**»، أي وقاية من الشهوات، ودفْعٌ لها.

---

(١) تفسير السعدي.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير القرآن: الإيجي، وتفسير الجلالين، تفسير ابن كمال باشا.

فالصوم صوم العين عن النظر إلى الحرام، وصوم الأذن عن سماع الحرام، وصوم اليد عن البطش في الحرام، وصوم القدم عن السير نحو الحرام، وصوم اللسان عن الكلام الحرام، وصوم القلب عن أن ينطوي على حقد أو حسد أو رياء أو بغضاء، وبذلك يكون العبد قد حقق روحَ الصيام تقوى الله سبحانه وتعالى.

فما أعظم أن يُحصِّل العبدُ مرادَ الله تعالى ووصيته للأولين والآخرين «التقوى»، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]

و «لَيْسَ تَقْوَى اللهِ بِصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالتَّخْلِيطِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ تَقْوَى اللهِ تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللهُ، فَمَنْ رُزِقَ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ إِلَى خَيْرٍ»(١)

التقوى:

ـ **كما قال طلق بن حبيب** رضي الله عنه: «أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ، تَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَخَافُ عَذَابَ اللهِ»(٢)، فليحرص الصائم على التماس هذه المعاني العظيمة في هذه الأيام العظيمة.

ـ **وقد قيل**: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أُبيَّ بن كعب عن التقوى، فقال له: أما سلكتَ طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمَّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

---

(١) عمر بن عبد العزيز، انظر: الزهد الكبير للبيهقي.

(٢) سير أعلام النبلاء.

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز؛ فقال:

خَلِّ الذنوب صغيرَها ∴ وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماشٍ فوق أر ∴ ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرةً ∴ إن الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يومًا:

يريد المرء أن يؤتى مُناه ∴ ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء: فائدتي ومالي ∴ وتقوى الله أفضل ما استفادا.(١)

فكم من الأشواك تعترضنا في طريقنا إلى الله تعالى، فوجب العدولُ عنها ومجاوزتُها، حتى نكون من عباد الله المتقين الذين يراقبون الله تعالى في سائر تصرُّفاتهم، فما كان لله مضَوا فيه وما كان لغيره رجعوا عنه، ورمضان من أعظم الفرص لتحقيق هذا المعنى، إذ للنفوس فيه صولة، وللقلوب أعظم جولة.

ـ **وعن أبي الدرداءِ قالَ:** «تمامُ التقوى أن يتقيَ اللهَ العبدُ حتى يتقيَه من مثقال ذرَّه، حتى يترك بعضَ ما يرى أنه حلالٌ خشيةَ أن يكونَ حرامًا، يكونُ حجابًا بينه وبين الحرامِ، فإنَّ اللَّهَ قد بيَّنَ للعبادِ الذي يُصيِّرُهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧- ٨]، فلا تحقرنَّ شيئًا من الخيرِ أن تفعلَهُ، ولا شيئًا من الشرِّ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير.

أن تتقيَهُ»(١)

ففي الوقت الذي صام العبد عن الحلال من زوجة وطعام وشراب، يسهل عليه مقارفة هذه المعاني، والغوص في تطبيقها.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعْلَمْ أنَّهُ لا يَتِمُّ التَّقرُّبُ إلى اللهِ تَعالى بتركِ هذهِ الشَّهواتِ المباحةِ في غيرِ حالةِ الصِّيامِ إلَّا بعدَ التَّقرُّبِ إليهِ بتركِ ما حَرَّمَهُ اللهُ في كل حالٍ مِن الكذبِ والظُّلمِ والعدوانِ على النَّاسِ في دمائِهِم وأموالِهِم وأعراضِهِم.

* ولهذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَن لمْ يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ بهِ؛ فليسَ للهِ حاجةٌ في أنْ يَدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ**» خَرَّجَهُ البخاريُّ.

* وفي حديثٍ آخرَ: «**ليسَ الصِّيامُ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ، إنَّما الصّيامُ مِن اللغوِ والرَّفثِ**» قالَ الحافظُ أبو موسى المَدينِي: هوَ على شرطِ مسلمٍ.

[و] **قالَ بعضُ السَّلفِ**: أهونُ الصِّيامِ تركُ الشَّرابِ والطعامِ.

وقالَ جابِرٌ: إذا صُمْتَ؛ فلْيَصُمْ سمعُكَ وبصرُكَ ولسانُكَ عن الكذبِ والمحارِمِ، ودع أذى الجارِ، ولْيَكُنْ عليكَ سكينةٌ ووقارٌ يومَ صومِكَ، ولا تَجْعَلْ يومَ صومِكَ ويومَ فطرِكَ سواء.

إذا لَمْ يَكُنْ في السَّمْعِ مِنِّي تَصاوُنٌ .·. وَفي بَصَري غَضٌّ وَفي مَنْطِقي صَمْتُ
فَحَظِّي إذًا مِنْ صَوْمِيَ الجوعُ .·. فَإنْ قُلْتُ إنِّي صُمْتُ يَوْمِي فَما صُمْتُ

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي.

* وقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**ربَّ صائمٍ حظُّهُ مِن صيامِهِ الجوعُ والعطشُ، وربَّ قائمٍ حظُّهُ مِن قيامِهِ السَّهرُ**».

وسرُّ هذا أنَّ التَّقرُّبَ إلى اللهِ تَعالى بتركِ المباحاتِ لا يَكْمُلُ إلَّا بعدَ التَّقرُّبِ إليهِ بتركِ المحرَّماتِ، فمَنِ ارْتكبَ المحرَّماتِ ثمَّ تَقَرَّبَ بتركِ المباحاتِ؛ كانَ بمثابةِ مَن يَتْرُكُ الفرائضَ ويَتَقَرَّبُ بالنَّوافلِ ....»(١)

ـ **وعن مَيمون بن مِهْران قال:** «لا يكونُ الرجلُ منَ المتَّقين حتى يُحاسبَ نفسَهُ أشدَّ من محاسبةِ الشَّريك، حتى يعلمَ من أين مَطْعَمُه؛ ومن أين مَشْربُه؟ [ومن أين مَلْبَسُه؟] أمِنْ حلالٍ ذلك أمْ من حرام؟»(٢)

فمن دلائل التقوى وأظهر علاماتها: مداومة العبد على محاسبة نفسه، ورمضان فرصة عظيمة لإجراء هذه العملية على أتم ما ينبغي، لعلَّها تكون عادةً حسنةً له، تزكو بها نفسُه، وينالُ فيها مرضاةَ ربه.

ومما يعين على تحقيق التقوى في القلب:

أن يحوط الإنسان قلبه كما يحوط ماله، ويُغذِّيه بما ينفعه كما ينمي تجارته، ويحرسه عن لصوص الوقت والخير، فهم أخطر من قطاع الطريق، لأنهم يقطعون صلتك بالمنعم الكريم سبحانه ويفسدون علاقتك به.

ذلك أن محلَّ التقوى القلب، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [المائدة:٧] وقد أخبرنا النبي ﷺ بذلك حين قال: «لا تحاسدوا،

(١) لطائف المعارف.

(٢) البداية والنهاية.



ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبِع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يَخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات.(١)

والمعنى: «أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته»(٢)

وقال سبحانه وتعالى ـ في الهدي الذي نحره أصحاب رسوله ﷺ في الحج ـ: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧].

فالله تبارك وتعالى لا يصل إليه اللحوم والجلود والدماء، وإنما يصل إليه سبحانه ما يقع في قلب العبد وهو يقدِّم الهدي والأضحية من تعظيم للرب سبحانه، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج:٣٧]

والتَّقيُّ دائم التذكر لقول الله تعالى: إنَّ ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]

ومن كانت عنايته بعدم دخول مفطرٍ إلى جوفه وتحرزه من ذلك أكثر من عنايته باستشعار غاية الصوم ومعناه، فما فقه حقيقة الصيام!

فاللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى



(١) رواه مسلم.

(٢) شرح النووي على مسلم.

[٧]

رمضان يُربِّينا على مكارم الأخلاق

* هناك رابطة وثيقة بين تقوى الله وحسن الخُلق، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: «**تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ**»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «**الفَمُ وَالفَرْجُ**»(١)

* وقد جمع الله تعالى لنبيه ﷺ بينهما، حين قال: «**أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتقَاكُمْ لَه**»(٢)، وكلاهما ربَّانا الصومُ عليهما، ورغَّبنا فيهما، فإذا كانت التقوى هي الأثر الباطن لإقامة فريضة الصوم، فإن حسن الخُلق هو الأثر الظاهر لإقامة هذه الفريضة.

ويمكن القول: بأن التقوى صلاح ما بين العبد وبين الرب، وحسن الخلق صلاح ما بينك وبين الناس، فإذا أصلح العبد ما بينه وبين الله كان تقيًا، وإذا أصلح ما بينه وبين الناس كان خلوقًا، وقد دعا الصيام إلى الأمرين، فقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]

---

(١) صحيح سنن الترمذي.

(٢) رواه البخاري.




* وقال ﷺ: «وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»(١)

(فلا يرفث) أي لا يتكلَّم بكلامٍ قبيح.

(ولا يَصْخَب) أي لا يُعلِي صوتَه على غير العادة، أو لا يفعل شيئًا مِن أفعال أهل الجهل؛ كالصِّياح والسَّفه، ونحو ذلك.

(فإن سابَّه أحدٌ أو قاتَلَه) أي إذا شُتِم، أو جُهِل عليه، أو حورِب، فهنا يظهر خُلُقه، وتُعرف حقيقته.

(فليقل: إني امرُؤٌ صائمٌ) يقول ذلك بلسانه، ليندفعَ عنه خصمُه؛ والمعنى إذا كنتُ صائمًا لا يجوز لي أن أقاتلَك بالشَّتم والهَذَيان، فإن الصوم ألجمني وحتَّم علي حُسنَ الخُلُق.

وقيل: لا يقول ذلك بلسانه، بل بفكره في نفسه؛ لتسكنَ نفسُه من الغضب، ولا يُجيبُ خصمَه.

فرمضان شهر البُعد عن الخصومات والنزاعات، وهو شهر التآلف والمحبة بين المسلمين.

والنهيُ عن الرفَث والصخَب في الصيام لا يقتضي إباحتهما في غيره، وإنما يتأكد النهي عنهما في الصيام، كنوعٍ من تربيةِ النفس على ذلك فيما بعد، وكذلك الأمر بعدم مقابلة الإيذاء بمثله في الصيام لا يقتضي الأمرَ بمقابلة الإيذاء بمثله في غيره، بل قد رغَّب الشارع الحكيم بمقابلة الإساءة بالإحسان

---

(١) رواه البخاري.

أبدًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

فالصوم يُهذِّب الخُلق، ويربي النفس، ويعوِّد على الأخلاق الجميلة، من كف الأذى، وصدق اللسان، وصلة الأرحام، والصبر، وشكر النِّعَم، والابتعاد عن السَّب، واللعن، والغِيبة، والنميمة، والحقد، والبخل، والحسَد، وأن تحبَّ للآخرين كما تحبُّ لنفسك.

واعلم أن: الخُلقَ الكريمَ هو مقصود العبادات في الإسلام، بدونه تبقى طقوسًا وحركات لا قيمة لها ولا فائدة منها، فالعبادات تهذب النفس، وتطهرها، وتصحح الأخلاق.

والقرآن والسنة يكشفان بوضوح عن هذه الحقائق، فقد بين الله الحكمة من الصلاة التي هي عماد الدين فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥]، والزكاة ليست ضريبة تؤخذ من الأموال، بل هي غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد للعلاقات والألفة بين شتى الطبقات، قال الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣]، والصوم ليس حرمانًا من الطعام والشراب، ولا تعذيبًا للنفس، بل هو خطوة لحرمان النفس من الشهوات المحظورة والنزوات المنكرة، وتدريبٌ على التحلي بالأخلاق الجميلة، كما قال ﷺ: «**مَن لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة أن يدَعَ طعامه وشرابه**»(١)، ولمَّا قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ

---

(١) رواه البخاري.

فُلَانَةً تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ وَتَفْعَلُ وَتَصَّدَّقُ وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ: «**لَا خير فيها هي من أهل النار**»، وَقيل له: فُلَانَةٌ تُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ وَتَصَّدَّقُ بِأَثْوَارٍ(١)، وَلَا تُؤْذِي أَحَدًا؟، فَقَالَ: «**هي من أهل الجنة**»(٢)، والحج كذلك من حِكَمِهِ العظيمة غرس الفضائل والأخلاق في النفوس والقلوب، قال الله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧].

فهذه الأركان والفرائض وإن اختلفت في جوهرها ومظهرها، لكنها تلتقي عند غاية واحدة، وهي تهذيب النفوس، وإشاعة الأخلاق الحميدة.

بل إن حُسن الخلق وتهذيبَ النفس هو غاية الرسالة، فلقد أفصح رسول الله ﷺ عن الغاية الأولى من بعثته والمنهاج المبين في دعوته بقوله: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»(٣)، وفي رواية: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(٤)

والمقصود أنَّ من أراد الصوم الحقيقي فليحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى ، ويذكر الموت والبلى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا، فهذا عيد فطره يوم لقاء ربه وفرحه برؤيته.

---

(١) جمع ثور وهو القطعة من الإقط.

(٢) صحيح الأدب المفرد.

(٣) أخرجه أحمد، وسند صحيح، وانظر صحيح الجامع، وصحيح الأدب المفرد.

(٤) انظر الصحيحة.




أهْـلُ الخُصـوصِ مِـنَ الصُّـوَّامِ ∴ صَوْنُ اللِسانِ عَنِ البُهْتانِ وَالكَذِبِ
وَالعـارِفونَ وَأهْلُ الأُنْسِ صَومُهُمُ ∴ صَـوْنُ القُلـوبِ عَـنِ الأغيـارِ

وليعلم العبد: أن الأخلاق مقياس دقيق لدرجة الإيمان:

فعن أنسٍ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**أكْمَلُ المؤمِنين إيمانًا أَحْسَنُهم خُلُقًا**»(١)

فإن قيل: ما علاقة الخلق بالإيمان؟

الإيمان قوة عاصمة عن الدنيا، دافعة إلى المَكرُمات، ومن ثَمّ فإن الله عندما يدعو عباده إلى خير أو ينفرهم من شر، يجعل استجابتهم من مقتضى الإيمان المستقر في قلوبهم، فما أكثر ما ينادي الله على عباده قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ثم يذكر بعدُ ما يُكلفهم به.

فالإيمان القوى يولِّد الخلق القوى حتمًا، وعليه فإن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، ولهذا قال ﷺ: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانُه، ولا يستقيمُ لسانُه ولا يدخلُ الجنةَ حتى يأمنَ جارُه بوائِقَه**»(٢)

* وقال رسولُ الله ﷺ: «**المؤمِنُ مَنْ أَمِنَهُ الناسُ، والمسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المسْلِمونَ مِنْ لِسانِه ويَدِهِ، والمهاجِرُ مَنْ هَجر السُّوءَ، والذي نفْسي بيده لا**

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.
(٢) صحيح الترغيب والترهيب.



يدْخلُ الجنَّةَ عبدٌ لا يَأْمَنُ جارُه بوائِقَهُ»(١)

وإذا خرج العبد من رمضان حسَنَ الخُلُق: فقد نال المنازل العلية عند رب البرية سبحانه وتعالى، كيف لا وقد حقق أثقل الأعمال في ميزان الحسنات يوم القيامة، ففي الحديث: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ**»(٢)

* وقال ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»(٣)، وقال: «**إن من أحبِّكم إليَّ وأقربِكم مني مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنُكم أخلاقًا**»(٤)

فوجب على كل مؤمن أن ينتهز فرصة رمضان ليدرب نفسه على مكارم الأخلاق، حتى يصير حُسن الخلق من سجاياه، وتصير الفضائل من خصاله ومزاياه.

فاللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت،
واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت



---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.
(٢) صحيح سنن الترمذي.
(٣) صحيح أبي داود.
(٤) صحيح سنن الترمذي.

[٨]

رمضان يُربِّينا على الصَّوم

وحقًا فهي مدرسة الثلاثين يومًا، فحريٌ بعد صيام ثلاثين يومًا متتابعة، أن يجعل المؤمن له حظًا من الصوم طوال العام، وإن أقلل، فالصيام فضائله كثيرة وفوائده غزيرة، وحسبك أنّ:

١. ثوابَه غيرُ محدود، وأجره غير معدود:

❊ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قَالَ اللهُ تعالى: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»(١)، وفي رواية لمسلم: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ؛ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»

---

(١) متفق عليه.




وهذا الحديث العظيم يدل على فضيلة الصوم من وجوه متعددة:

الأول: أن الله اختص نفسه بالصوم من بين سائر الأعمال وذلك لشرفه عنده ومحبته له وظهور الإخلاص فيه؛ لأنه سِرٌّ بين العبد وبين ربه لا يطلع عليه غيره، فإن الصائم إذا خلا بنفسه يستطيع فعل ما حرَّم الله عليه، لكنه يعلم أن له ربًا يطلع عليه في خلوته، من أجل ذلك شَكَرَ الله له قائلًا: «يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»، وتظهر فائدة هذا الاختصاص يوم القيامة، كما قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُحَاسِبُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَبْدَهُ وَيُؤَدِّي مَا عَلِيهِ مِنَ الْمَظَالِمِ مِنْ سَائِرِ عَمَلِهِ حَتَّى لاَ يَبْقَى إِلاَّ الصَّوْم، فَيَتَحَمَّلُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَظَالِمِ وَيُدْخِلُهُ بِالصَّوْمِ الْجَنَّةَ»(١)

الثاني: أن الله قال في الصوم: «وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»؛ فأضاف الجزاءَ إلى نفسه الكريمة، لأن الأعمال الصالحة يضاعف أجرها بالعدد، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، أما الصوم فإنَّ الله أضاف الجزاء عليه إلى نفسه من غير اعتبار عدد، والعطية بقدر معطيها، وهو سبحانه خير من أعطى وأعظم من جاد.

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأعمال كلها تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصيام فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله عَزَّوَجَلَّ أضعافا كثيرة بغير حصر عدد، فإن الصيام من الصبر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]»(٢)

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى.

(٢) لطائف المعارف.

الثالث: أن الصوم جُنَّة؛ أي وقاية وستر يقي الصائم من اللغو والرفث، ولذلك قال: «وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ»، ويقيه كذلك من الشهوات، فبالتالي يقيه من النار، كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ مِنْ النَّارِ»(١)

الرابع: أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، لأنها من آثار الصيام، فكانت طيِّبة عند الله سبحانه ومحبوبة له، وهذا دليل على عظيم شأن الصيام عند الله، حتى إن الشيء المكروه المستخبث عند الناس يكون محبوبًا عند الله وطيِّبًا، لكونه نشأ عن طاعته.

الخامس: أن للصائم فرحتين: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه؛ أما فرحه عند فطره: فيفرح بما أنعم الله عليه من القيام بعبادة الصيام الذي هو من أفضل الأعمال الصالحة، وكم من أناس حُرموه فلم يصوموا، ويفرح بما أباح الله له من الطعام والشراب والنكاح الذي كان محرمًا عليه حال الصوم، وأما فرحه عند لقاء ربه: فيفرح بصومه حين يجد جزاءه عند الله تعالى موفورًا كاملًا في وقت هو أحوج ما يكون إليه.(٢)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «والمقصود: أن مصالحَ الصومِ لمَّا كانت مشهودةً بالعقول السليمةِ والفِطَرِ المستقيمة شرعه اللهُ لعباده رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وحِميةً لهم وجُنَّةً»(٣)

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، وانظر صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) مختصرًا ومزيدًا من مجالس رمضان، للعثيمين.

(٣) زاد المعاد.

٢. الصوم يشفع لصاحبه يوم القيامة:

كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ يَقُولُ الصِّيَامُ أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ فَيُشَفَّعَانِ**»(١)

٣. للصائمين بابٌ في الجنة يقال له الريان لا يدخل منه غيرهم:

❊ كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُونَ لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ**»(٢)

٤. من صام يومًا واحدًا في سبيل الله أبعد الله وجهه عن النار سبعين عامًا:

❊ كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبدٍ يصوم يومًا في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهَه عن النار سبعين خريفًا**»(٣)

قال القرطبي: «سبيل الله طاعة الله، فالمراد من صام قاصدًا وجه الله»(٤)

---

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) فتح الباري، لابن حجر.

٥.الصوم يكفِّر الخطايا، ويُبعِد العبدَ عن الرزايا:

* كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»(١)، والمعنى أن كلَّ تقصيرٍ يحصل في حق هؤلاء، أو بسببهم يُكفِّره الصّوم.

ولهذا جعله الله تعالى في جملة الكفارات:

- **كفارة فدية الأذى في الحج أو العمرة**، قال تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ﴾ [البقرة:١٩٦]

- **كفارة المتمتع إذا لم يجد الهَدْي في الحج**، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة:١٩٦]

- كفارة القتل الخطأ، فقال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء:٩٢]

- **كفارة اليمين**، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ﴾ [المائدة:٨٩]

٦.الصوم من أفضل الأعمال عند الله تعالى:

* فهو من الأعمال الصالحة التي لا عِدل لها، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِأَمْرٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، قَالَ: «**عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ**

---

(١) متفق عليه.



فَإِنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ»(١)، في الإخلاص، في ضبط النفس، والوقاية من الشهوات، وقيل: «لِأَنَّهُ يُقَوي الْقلب والفطنة وَيزِيد فِي الذكاء والزكاء وَمَكَارِم الْأَخْلَاق، وإذا صام المرء اعتاد قلة الأكل والشرب وانقمعت شهواته وانقلعت مواد الذنوب من أصلها ودخل في الخير من كل وجه وأحاطت به الحسنات من كل جهة»(٢)

٧. الصيام يطهر القلب، ويجعل الصدْرَ سليمًا:

* فعَنْ عَلِيٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «**صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ يَذْهَبْنَ بِوَحَرِ الصَّدْرِ**»(٣) وفي رواية: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»(٤)، وَحَرُ الصدر: الغل والحقد والغش ووساوس الشيطان وما يحصل في القلب من كُدرة أو قسوة.

٨. الصوم سببٌ عظيم لإجابة الدعاء:

* فعَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثلاثُ دَعَواتٍ مُستجاباتٍ: دعوةُ الصائِمِ، ودعوةُ المظلُومِ، ودعوةُ المسافِرِ**»(٥)

---

(١) صحيح سنن النسائي.

(٢) فيض القدير.

(٣) رواه أحمد والبيهقي والبزار وصححه الألباني.

(٤) رواه النسائي وصححه الألباني.

(٥) رواه البيهقي والطبراني وصححه الألباني.

٩. من خُتم له بصيام يوم دخل الجنة:

* فعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ خُتِمَ لَهُ بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، وفي رواية أخرى: «**من ختم له بصيام يوم يريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ أدخله الله الجنة**»، أي من ختم عمره بصيام يوم بأن مات وهو صائم أو بعد فطره من صومه دخل الجنة مع السابقين الأولين، أو من غير سبق عذاب.(٢)

* وأخيرًا، يقول ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا**»، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(٣)

فاللهم اجعل صيامنا مقبولًا، واجعله خالصًا لوجهه الكريم



(١) رواه أحمد وصححه الألباني.

(٢) فيض القدير.

(٣) رواه الترمذي وصححه الألباني.




[٩]

رمضان يُربِّينا على القيام

فحريٌّ بمن قام لله تعالى ـ في مدرسة الثلاثين يومًا ـ ثلاثين ليلة، تنعَّم فيها بالقرآن، وتذوَّق فيها لذةَ المناجاة بين يدي الله، ألَّا يحرِم نفسه قيام الليل أبدًا، لأن:

١ـ قيام الليل شرف المؤمن:

* هذا ما تنزَّل به أمين السماء جبريل على أمين الأرض محمد ﷺ، حين قال: «**يا محمد! عِشْ ما شئتَ فإنك ميتٌ، واعمل ما شئتَ فإنك مجزيٌّ به، وأحبِبْ من شئتَ فإنك مفارقُه، واعلم أنّ شرفَ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزَّه استغناؤه عن الناس**»(١)

* وقيام ليل رمضان شرفٌ على شرف، وقد روى الشيخان عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه**»

* وحسبك قولُ النبي ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ**

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

قَبْلَكُمْ وَقُرْبَةٌ إِلَى الله تَعَالَى وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ (وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الجَسَدِ)»(١)

ففي قيام الليل يخلو المؤمنون بربهم، ويقومون بين يدي خالقهم، فيستغفرونه ويتوبون إليه، ويسألونه من فضله، ويرغبون إلى عظيم هباته وعطاياه.

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

والمعنى: هل يستوي من هذه صفته، مع من نام ليلَه وضيّع نفسه، غير عالم بوعد ربه ولا بوعيده؟! ولا مهتم له؟

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سُئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ وأي الصيام أفضل بعد شهر رمضان؟ فقال: «**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاةُ في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيامُ شهر الله المحرم**»(٢)

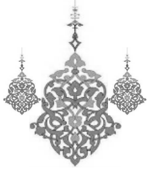
٢ - في قيام اللّيل يَحْصُلُ العبدُ على كلِّ خيرٍ مما يتعلق بدنياه وأُخراه:

* فعن جابر رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إنَّ من اللَّيل ساعة، لا يوافقها عبدٌ مسلم، يسأل الله خيرًا إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة**»(٣)

(١) صحيح الجامع الصغير، وما بين القوسين ضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.




* وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ينزلُ ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقولُ: مَنْ يدعُوني فأستجيب له، مَنْ يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»(١)

فأهل الليل مجابو الدعوة؛ إذا استنصروا الله نصرهم، وإذا استعاذوه أعاذهم؛ وإذا سألوه أعطاهم، وإذا استغفروه غفر لهم.

* فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**»(٢)

٣ - إذا قام العبد الليل أصبح طيبَ النفس نشيطًا، معانًا على عمله سائر يومه:

* كما قال صلى الله عليه وسلم: «**يَعقدُ الشيطانُ على قَافية رأسِ أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة: عليك ليلٌ طويل فارقد، فإنْ استيقظ فذكر الله انحلتْ عقدة، فإن توضأ انحلتْ عقدة، فإن صلَّى انحلت عقدة، فأصبح نشيطًا طيبَ النَّفْس، وإلَّا أصبح خبيثَ النفس كسلان**»(٣)

وقد بوَّب البخاري على هذا الحديث قائلًا: باب عَقْدِ الشَّيْطَانِ عَلَى قَافِيَةِ الرَّأْسِ إِذَا لَمْ يُصَلِّ بِاللَّيْلِ.

---

(١) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

(٢) صحيح الترمذي.

(٣) متفق عليه.

وما ذاك النشاط لصاحب قيام الليل والصلاة ، إلا عونٌ من الله تعالى لمناجاته وتقرُّبه إليه، حتى أصبح بصرَه وسمعَه ويدَه ورجلَه.

* وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ذُكر عند رسول الله ﷺ رجلٌ نام حتى أصبح، فقال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو في أذنه**»(١)

واختُلف في بول الشيطان، فقيل: «على حقيقته»، وقيل: «كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة حتى لا يسمع الذكر»، وقيل: «إن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فحجبه عن الذكر»، وقيل: «كناية عن ازدرائه والاستخفاف به حتى اتخذه كالكنيف المعدّ للبول»(٢)

٤. قيام الليل من أعظم أسباب محبة الرب لعبده، وإكرامه له :

* عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثةٌ يحبُّهم اللهُ، ويضحكُ إليهم، وَيستبشرُ بهم: الذي إذا انكشفتْ فِئةٌ قاتلَ وراءها بنفسه لله عَزَّوَجَلَّ، فإمّا أنْ يُقتَلَ، وإمّا أنْ ينصرَه اللهُ ويكفيَه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟!، والذي له امرأة حسَنةٌ وفراشٌ ليِّنٌ حسنٌ فَيَقُومُ من الليلِ، فيقولُ: يَذَرُ شهوتَه وَيذكرني، ولو شاء رَقَدَ، والذي إذا كان في سفرٍ، وكان معه ركْبٌ، فسهِروا، ثم هَجَعُوا، فقام من السَّحَرِ في ضرَّاءَ وسرَّاءَ**»(٣)

---

(١) متفق عليه.

(٢) مختصرًا من فتح الباري.

(٣) صحيح الترغيب والترهيب.




* وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**عجِب ربُّنا من رجلين**: رجلٍ ثارَ عن وِطائه ولِحافِه، من بين أهله وحِبِّه إلى صلاتِه، فيقول الله جل وعلا: [أيَا ملائكتي] انظروا إلى عبدي ثارَ عن فِراشِه وَوِطائه، من بين حِبِّه وأهلِهِ إلى صلاتِه؛ رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي، ورجلٌ غزا في سبيلِ اللهِ وانهزمَ أصحابُه، وعلم ما عليه في الانهزامِ، وماله في الرجوعِ، فرجع حتى يُهريقَ دَمَه، فيقول الله [لملائكته]: انظروا إلى عبدي رجع رجاءَ فيما عندي، وشفقةً مما عندي، حتى يُهرَيقَ دَمَهُ»(١)

٥. قيام الليل يُعلي المنازل، ويرفع الدرجات، ويَنفي عن العبد الغفلة:

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتب من المقنطرين**»(٢)

(**من قام بعشر آيات**): يعني: من قرأ عشر آيات في صلاته مرتِّلًا متدبرًا.

(**لم يكتب من الغافلين**): أي مُسِح اسمه من صحيفتهم.

(**ومن قام بمائة آية كتب من القانتين**): أي: من الذين قاموا بأمر الله، ولزموا طاعته، وخضعوا له، ولا شك أن قراءة القرآن في كل وقت لها مزايا وفضائل، وأعلاها أن تكون في الصلاة، لا سيما في الليل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح أبي داود.

نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦](١)

(ومن قام بألف آية): قال ابن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من الملك إلى آخر القرآن ألف آية.

(كُتب من المقنطرين): أي الذين بلغوا في حيازة المثوبات مبلغ المقنطرين في حيازة الأموال.(٢)

* **واعلم أن:** روح القيام الخشوع والخضوع، فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، فَمَضَى فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَتَيْنِ، فَمَضَى فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ...»(٣)

وأخيرًا: اعلم أن أول كلمات تكلَّم بها النبي ﷺ حين قدِم المدينة: «يا أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخُلوا الجنة بسلام»(٤)

---

(١) مرقاة المفاتيح.

(٢) مختصرًا من مرقاة المفاتيح.

(٣) صحيح سنن النسائي.

(٤) صحيح سنن الترمذي وابن ماجه.

وإذا أردت أن تقوم بالليل:

١ – أخلص النية لربك، فإن المخلص مُعان.

٢ – وجاهد نفسك على اجتناب المعاصي.

٣ – واذكر دومًا ما أعده الله تعالى من الثواب العظيم لمن يقوم الليل.

٤ـ واحرص على أكل الحلال.

٥ – واحرص على النوم مبكرًا، وقم بالأسباب المساعدة على القيام بالليل، وعلى رأسها: التواصي بين أهل البيت على ذلك.

٦ـ واستعن بالقيلولة على قيام الليل.

فاللهم اجعلنا من عبادك القائمين القانتين المقنطرين

❀❀❀

[١٠]

رمضان يُربِّينا على محبة القرآن والتنعُّم به

بيْن رمضان وبين القرآن علاقة عجيبة، كيف لا؟ والقرآن خص الله تعالى نزولَه في رمضان، ولهذا بعد أن أمر الله تعالى بالصوم، وبيَّن حِكمته في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]، قال بعدها: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥].

* ولهذا قرن النبي ﷺ بينهما حين قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: ربِّ إني منعته الطعامَ والشرابَ بالنهار؛ فشفعني فيه، ويقول القرآن: رب منعتُه النوم بالليل؛ فشفعني فيه، فَيُشَفَّعان»(١)

فالصيام يشفع لمن منعه الطعام والشهوات المحرّمة كلّها، سواء كان تحريمها يختصّ بالصّيام، كشهوة الطعام، والشّراب، والنّكاح، ومقدماتها، أو لا يختص به، كشهوة فضول الكلام المحرّم، والنظر المحرّم، والسّماع المحرّم، والكسب المحرّم؛ فإذا منعه الصّيام من هذه المحرّمات كلّها، فإنه يشفع له عند الله يوم القيامة، ويقول: يا ربّ، منعته شهواته، فشفّعني فيه.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

فأمّا من ضيّع صيامه ولم يمنعه ممّا حرّمه الله عليه، فإنّه جدير أن يضرب به وجه صاحبه؛ ويقول له: ضيّعك الله كما ضيعتني.

وكذلك القرآن إنما يشفع لمن منعه من النوم بالليل[(١)]، فإن من قرأ القرآن وقام به، فقد قام بحقّه فيشفع له.

قال ابن مسعود: ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يُفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يَخلِطون، وبصمْته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، وبحُزنه إذا الناس يفرحون.

منع القرآنُ بوعدِه ووعيدِه .:. مُقلَ العيونِ بليلِها لا تهجعُ
فِهموا عن الملِك العظيمِ كلامَه .:. فهْما تذلّ له الرّقاب وتخضعُ

فأمّا من كان معه القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار، فإنّه ينتصب القرآن خصمًا له، يطالبه بحقوقه التي ضيّعها.[(٢)]

فوظيفة رمضان الكبرى: هي الاعتناء بالقرآن والقيام به، والصوم لأجل تخلية الذهن للوقوف عند عجائبه.

ولهذا إذا علمت حال السلف رضي الله عنهم مع القرآن في رمضان رأيتَ عجبًا:

- كان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال.

---

(١) أي ببعضه.
(٢) مختصرًا من لطائف المعارف، لابن رجب.

- وبعضهم في كل سبع، منهم قتادة.

- وبعضهم في كل عشر.

- وكان بعضهم يختم في العشر الأواخر كل ليلة.

- وكان للشافعي في رمضان ستون ختمةً يقرؤها في غير الصلاة.

- وكان الإمام مالِك إذا دخل رمضان نفَر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المُصْحف.

- وسُئل الزهري عن العمل في رمضان؟ فقال: إنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام.

- وكان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة(١)، وأقبل على تلاوة القرآن.(٢)

ويبقى القول: أن هؤلاء القوم إنما كانوا يختمون هذه الختمات، ويقومون بهذا العمل على أساسين:

الأول: شرف الزمان، وبركة الشهر، فيُستطاع في هذه الأيام ما لا يُستطاع في غيرها.

الثاني: ـ وهو المهم ـ أن هؤلاء القوم إنما فهموا مرادَ الله وعرفوا خطابه، فهم يفهمون ما يقرؤون، ويعُون ما يتلُون، ولهذا ساغ لهم ذلك.

---

(١) المقصود غير الواجبة.

(٢) انظر لطائف المعارف، والتبيان في آداب حملة القرآن.

ولهذا نقول: إنَّ تدبرَ كلام الله وتفَهُّمَ معانيه هو مقصود التلاوة، ووسيلة الانتفاع بها، وهذا هو أعظم واجبنا نحو القرآن، وهو سبيل محبته والتنعم به.

ـ تدبر القرآن من الأعمال العظيمة التي حث الله تعالى عليها، وبيَّن أنها الغاية من إنزاله، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن أصغى إلى كلام الله وكلام رسوله بعقله، وتدبَّره بقلبه وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومِه ولا منثورِه»[١]

وقال: «وَالْمَطْلُوبُ مِنْ الْقُرْآنِ هُوَ فَهْمُ مَعَانِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ هِمَّةَ حَافِظِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالدِّينِ»[٢]

ـ إن من أراد الحياة للقلب، والسعادة، والبصيرة، والبركة، والموعظة، والشفاء، فليبدأ بتدبر القرآن، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، فلا حياة للقلب، ولا سلامة له، بغير الإقبال على هذا الكتاب المجيد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامعٌ لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم.

(٢) مجموع الفتاوى.




والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله ، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه ، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة ، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمةٍ بغير تدبر وتفهم ، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن»(١)

ـ من أراد الوقاية من الشبهات المضلة، والرَّدع من الشهوات المهلكة، فليُنزِّل آيات هذا الكتاب العظيم على عقله غذاءً، وعلى قلبه دواءً ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:١٠٢]

ـ من أحبَّ أن يتذوق طعم الإيمان، ويتنعم بحلاوة الطاعة، فليُقبل على القرآن، تلاوةً، وفهمًا، وحِفظًا، وتحاكمًا وعملًا،: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣]

قَالَ بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ: «إِنَّمَا الْآيَةُ مِثْلُ التَّمْرَةِ كُلَّمَا مَضَغْتَهَا اسْتَخْرَجْتَ

---

(١) مفتاح دار السعادة.



حَلَاوَتَهَا»، فَحُدِّثَ بِهِ أَبُو سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: «صَدَقَ إِنَّمَا يُؤْتَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَنَّهُ إِذَا ابْتَدَأَ السُّورَةَ أَرَادَ آخِرَهَا»(١)

والله إن نعيم القرآن لا يعادله أي نعيم، وإن أحق ما توهب له الأعمار والأوقات كتابُ الله.

ـ إنَّ في القرآن الكفاية، ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١]

خطوات عملية لتدبر القرآن:

١ـ افهم المعنى من كتب التفسير، وحبذا لو ألزمت نفسك بثلاث ختمات من كتاب «المختصر في تفسير القرآن الكريم» آية وتفسير(٢)، فشرط التدبر فهم المعنى.

٢- استعن بالكتب التي تعتني بالتدبر العملي، ومنها: هدايات القرآن الكريم، القرآن تدبر وعمل [النسخة الجديدة]، كتب د فايز السريح، كتب د مشعل الفلاحي، كتب د هاني درغام، كتبي المعنية بالتدبر، كتدبر سورتي البقرة وآل عمران، وتدبر العشر الأخير من القرآن الكريم، وغيرها.

٣- لا تهمل وِردك من التلاوة المرتلة، ولا تتركه تحت أي ضغط، فمن أدام طرق الباب فُتِح له، ومع تلاوتك، أحضر قلبك، وأصغِ سمعك،

---

(١) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي.

(٢) نسخة لطيفة تأتي بالآية، وتحتها التفسير المختصر، تجد النسخة بي دي إف على قناتي على التليجرام «قناة العلم والإيمان»

وتخلَّص من حديث النفس، واستحضر عظمةَ المتكلِّم جل جلاله، واستشعر أنك المخاطب، واقرأ لتعمل.

٤ـ تخلَّص سريعًا من موانع الفهم، وأولها المعاصي، كالتعلق بشهوات الدنيا المحرمة والإصرار عليها، كالنظر إلى المحرمات، وسماع الأغنيات وما أكثر ذلك في هذا الزمان والله المستعان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في نونيته:**

حُـبُّ الكتـابِ وحـب ألحـان الغنـا ⁂ في قلـــب عبـــدٍ لـــيس يجتمعـــان

وأخطر المعاصي معاصي القلب، كالرياء والكبر والحسد، ونحوها.

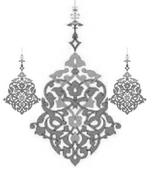
قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة أو كِبْر أو هوى أو حب دنيا، أو وهو مُصِرّ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله؛ وهذه كلها حُجب وموانع بعضها آكدُ من بعض»(١)

فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا،
ونور أبصارنا، وجلاءَ همومنا وأحزاننا



---

(١) البرهان باختصار.

[١١]

رمضان يُربِّينا على صلة الأرحام

إذا كنا نُردد دائمًا: أن رمضان شهر البر والخير والإحسان، فإن أولى الناس بذلك الأرحام، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦]، فجعل الله تعالى للأرحام الأولوية والعناية من بين سائر الناس.

فالإحسان إلى الرحم لا كالإحسان إلى سائر الناس، ومعاونتهم لا كمعاونة سائر الناس، ووصلُهم لا كوصل سائر الناس، ولهذا قال ﷺ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ، صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ**»(١)

* ولمَّا سألت امرأةٌ من الأنصار، وزينب ـ امرأة عبد الله بن مسعود ـ رسولَ الله ﷺ: هل يُعطيان زكاة مالهما لزوجِهما؟ قال: «**نَعَمْ! ولهما أَجْرَانِ؛ أَجْرُ القَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ**»(٢)

* ولمَّا جاء أَبُو طَلْحَةَ إلى النبي ﷺ يقول: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢] وَإِنَّ أَحَبَّ

---

(١) صحيح سنن النسائي.

(٢) صحيح سنن النسائي.

أَمْوَالِي إِلَيَّ بِيرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ شِئْتَ، فَقَالَ: «**بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ**(١)، **قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَأَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**»، قَالَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ.(٢)

ولهذا جعَل الله تعالى الوصيَّة بصلة الأرحام قرينةَ الوصيَّة بالتقوى؛ التي هي حكمة الصوم العليا، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]؛ أي: اتَّقوا الله تعالى بِفعلِ طاعته وترْك معصيته، واتَّقوا الأرحامَ أن تقطَعوها، ولكن صِلُوها وبرُّوها، كما قاله ابن عبَّاس وغير واحدٍ من السَّلَفِ.

* وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الله، وصِلُوا أرحامكم**»(٣)

بادِروا لا تترخَّص:

فأي صيامٍ ينفعك وقد عققت والديك؟ وأي قيامٍ يفيدُك وقد قطعتَ رحمك؟

إذا كان رمضان شهرَ الطاعات، فلتكن طاعةُ الصلة بارزةً في هذا الشهر، دون تعللٍ بارد أو ترخُّصٍ جاف، فهناك من يتعللون في قطيعة أرحامهم بأن أرحامهم بدؤوهم بالقطيعة، وهؤلاء أخطؤوا أولًا في أنهم قابلوا الإساءة

---

(١) يروح عليه أجره كلما أُطعمت الثمار.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان وانظر الصحيحة.




بالإساءة ولم يقابلوا الإساءة بالإحسان، وأخطأوا ثانيًا في أنهم ساوَوهم في معصية قطيعة الرحم، وأخطأوا ثالثًا في أنهم ساوَوا حرمة رمضان بغيره من الأزمان في استمرار قطيعة الأرحام، وأخطأوا رابعًا في أنهم ظنوا أن الوصال لا يصلح أن يُكافأ به من يقاطِع، مع أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل من إذا قُطعت رحمه وصلها**»(١)

* واذكُر رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ فَقَالَ: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ**(٢)**، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»(٣)، فكلٌّ من الطرفين مأمورٌ بالصلة منهيٌّ عن القطيعة، وهي حقوق الله أولًا، فإذا قصَّر أحدُ الطرفين أو قطع، فلا يسوغ للآخر أن يُقصِّر أو يقطع.

والله تعالى في محكم كتابه أعلنها صريحة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]

فلا أفضلَ من هذا الشهر العظيم يتقرب المسلم فيه إلى ربه بصلة رحمه، رجاءَ ثوابِه وخوفًا من عقابه، وإزالةً لما قد يقع في النفوس من شحناء، فالمبادرة بالزيارة والصلة وإن كانت شاقة على النفس ولكنها عظيمة القدر عند الله.

(١) رواه البخاري.

(٢) تطعمهم الرماد الحار.

(٣) رواه مسلم.

فبادر أُخَيَّ بتفقُّد أرحامك بالزيارة والصلة والسؤال والصدقة وإصلاح ذات البين، ولا يتعذر أحد بانشغاله، فإن الشغل لا ينقضي، لكن العمُر سينقضي، وغدًا سنقف بين يدَي الله ليسألنا عن حق الرحِم، فادحَر الشيطان، وافتح باب الخير يفتحِ الله عليك.

علامة الخيرية:

* فإن النبي ﷺ قد جعل الإحسان إلى الأهل والرحم علامةَ الإيمان والخيرية، فقال: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»(١)

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخِر، فليَصِل رحمَه**»(٢)

فأوصَلُ الناسِ لرحمه أكمَلُهم إيمانًا بربِّه وأتقاهم له؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ أوصَلَ الناسِ لرَحِمِه وأتْقاهم له؛ ولذلك ذكَّرَتْه خديجة بذلك عند أوَّل نزول الوحي حين قال لخديجة وأخبرها الخبر: «**إنِّي قد خَشيتُ على نفسي**»، قالت: «كلا، والله ما يُخزِيك الله أبدًا؛ إنَّك لتصلُ الرَّحِم، وتحمل الكلَّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقري الضَّيف، وتُعِين على نوائب الحق»(٣)

ثواب عاجل، وعقوبة عاجلة:

* واعلم أن ثواب الصلة عاجل، وعقوبة القطيعة كذلك، فعن أبي بكرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**وإنَّ أَعجلَ البرِّ ثوابًا** ـ وفي رواية: **وإن أعجل**

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

الطاعةِ ثوابًا ـ لصلَةُ الرَّحِمِ، حتى إنَّ أهلَ البيتِ ليكونوا فجَرةً، فتنمو أموالُهم، ويكثُرُ عددُهم، إذا تواصَلوا»[(١)]

فهؤلاء الفُجَّار تنمو أموالهم، ويكثر عددهم إذا تواصلوا، فكيف لو كانوا من أهل الإيمان؟!

* وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: **«ما مِن ذنب أجْدرُ أن يُعجِّل الله لصاحبِه العقوبةَ في الدنيا مع ما يدخّر له في الآخِرة مِن البغي وقطيعة الرَّحِم»**[(٢)]

* وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ أحب أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**[(٣)] **فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»**[(٤)]

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: **«صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمْرِ، وصَدَقةُ السِّرِّ تُطفِئُ غضبَ الرَّبِّ»**[(٥)]

فاللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه



---

(١) أخرج الطبراني في الكبير، وانظر صحيح الجامع، وصحيح الترغيب والترهيب.
(٢) صحيح الأدب المفرد.
(٣) أي يبارك له في عمره.
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.
(٥) صحيح الجامع الصغير.




[١٢]

رمضان يُربِّينا على حب الدعاء والتعلق بالله

* الدعاء عبادة عظيمة، في كل حين، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**إن الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]

فالدعاء أساس العبادة وسر قوتها وروح قوامها؛ لأن الداعي إنما يدعو الله وهو يعلم يقينًا أنه لا أحد يستطيع أن يجلب له خيرًا، أو يدفع عنه ضرًا إلا الله جل وعلا، وهذه هي حقيقة التوحيد والإخلاص، ولا عبادة أعظم منهما.

لكنِ الدعاء في رمضان له معنىً خاص، ومذاقٌ خاص، وأثرٌ خاص، ففي وَسَطِ آيات الصيام، في سورة البقرة، ذكر الله تعالى الدعاء وشيئًا من آدابه وشروطه، وكأن الدعاء من أحكام الصيام، ومن آدابه ومعانيه!

قال سبحانه ـ بيْن آيات الصيام ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]

فقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وبعدها قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾




[البقرة:١٨٧]، فجاءت هذه الآية الكريمة وهي مختصة بالدعاء متوسطةً لآيات الصيام ومحفوفةً بها ولعل في ذلك ما يدل على عِظَم قدْر الدعاء وأهميته في هذا الشهر؛ لأن العبد في رمضان يملؤه الرجاء أن يوفقه الله للقيام بحق الله في هذا الشهر على أتم الوجوه وأكملها؛ ولا سبيل له إلى ذلك إلا بسؤال الله ودعائه، وهو كذلك يكثِر في هذا الشهر من الطاعات والعبادات والقربات وهو يرغب ويطمع أن يتقبلها الله منه؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا بدعائه والانكسار بين يديه والتضرع له، وكذلك قد يكون العبد مرتكبًا لبعض الآثام قبل رمضان أو صدر عنه نقص أو تقصير أو تفريط أثناء رمضان وهو يرغب في توبة الله عليه ومغفرة ذنوبه؛ ولا سبيل إلى ذلك إلا بالدعاء والرجاء، فكأن الله يلفت عباده إلى ما يلوذون به ويهربون إليه، وبه تُجاب رغباتُهم وتُقضى حاجاتُهم وتقال عثراتُهم وتغفر زلاتُهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكلَّ شرٍّ فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أنَّ التوفيق أن لا يكِلَك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كلُّ خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد؛ فمفتاحه الدعاءُ والافتقار وصدق اللَّجإ والرغبةِ والرهبةِ إليه، فمتى أعطَى [الله] العبدَ هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضلَّه عن المفتاح بقي بابُ الخير مُرْتَجًا دونه، وما أُتي من أُتِيَ إلا من قِبَل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظَفِرَ من ظفر، إلا بقيامه بالشكرِ وصدقِ الافتقار والدعاء»(١)

---

(١) الفوائد.




قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى اجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر»(١).

إذ الدعاء عقب العبادةِ من الأمور التي عُلِم استحبابُها، فهو أرجى للقبول وأدعى للإجابة، وقد رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «أنه كان إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا»(٢)

* والحق أن يوم الصائم كلَّه ساعة إجابة، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا تُرد دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء، يقول: بعزتي لأنصرنّك ولو بعد حين**»(٣)

قال النووي: «فَيَقْتَضِي اسْتِحْبَابُ دُعَاءِ الصَّائِمِ مِنْ أَوَّلِ الْيَوْمِ إِلَى آخِرِهِ، لِأَنَّهُ يُسَمَّى صَائِمًا فِي كُلِّ ذَلِكَ»(٤)، إذ الصائمُ حالَ صومه يكون رقيق القلب، جافَّ الشهوة، منكسرَ النفس، فرحًا باستجابته لربه، فيستجيب الله له.

وهكذا يربينا رمضان على حُبِّ الدعاء، ويصنع فينا التعلق بالله ورجاءَه والركونَ إليه.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي، والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني.

(٤) المجموع.

واعلم أن للدعاء شروطًا وآدابًا، ينبغي مراعاتها والأخذ بها، حتى يكون الدعاء مقبولاً مستجابًا:

١ـ وقد أشارت هذه الآية التي تخللت آيات الصيام إلى أهمَّ هذه الشروط، فقد قال الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦]، فاستجابة الرب على حسب استجابة العبد، ولمَّا قال الله تعالى في الحديث: «وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضتُه عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه» قال بعدها: «ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه»(١)

وفي الحديث: «**تعرَّف على الله في الرخاء؛ يعرفْك في الشدة**»(٢)، فالعبد إذا اتقى الله وحفِظ حدوده، وراعى حقوقه حال رخائه؛ فقد تعرّف على الله بذلك، فهذا حريٌّ أن يستجيب الله له.

٢ـ ومن أهم آداب الدعاء وشروطه: اليقين وحضور القلب، كما قال ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه**»(٣)

٣ـ التخلص من الحرام، أكلًا وشربًا، ولباسًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس، إن الله طيّبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا، وإن الله**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والطبراني والحاكم وغيرهم، وصحّحه الألباني مرفوعا عن ابن عباس.

(٣) صحيح سنن الترمذي.




تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١]، **وقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا ربِّ! يا ربِّ! ومطعمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرام، فأَنَّى يُستجاب لذلك»**(١)

٤- وليتحرَّ الداعي الأوقات والأحوال التي تكون الإجابة فيها أرجى، كجوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات، وبين الأذان والإقامة، وآخر ساعة من يوم الجمعة، وحال السجود، والصيام، والسفر، وغيرها من أوقات الإجابة.

٥- وليقدِّم بين يدي دعائه الثناءَ على الله جل وعلا، والصلاة على النبي ﷺ، والإقرار والاعتراف بالذنب والخطيئة، فعن فَضالةَ بن عُبَيْدٍ، قال: بَيْنا رَسولُ اللهِ ﷺ قاعدٌ إذ دَخلَ رَجُلٌ، فَصلَّى، فقال: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وارْحَمْنِي، فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: «**عَجِلْتَ أيُّها المُصَلي، إذا صَلَّيت فَقعَدْتَ، فاحْمَدِ اللهَ بما هو أَهْلُهُ، وَصَلِّ عَليَّ، ثمَّ ادْعُهُ**»، قال: ثُمَّ صَلَّى رَجُلٌ آخرُ بَعْدَ ذلكَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَصَلَّى على النبيِّ ﷺ، فقال لهُ النبيُّ ﷺ: «**أَيُّها المُصَلِّي، ادْعُ تُجَبْ**»(٢)

* **واعلم أن:** الأمر كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما**

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح سنن الترمذي.

من مسلم يدعو الله بدعوةٍ ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تُعجَّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»، قالوا: إذًا نكثِرَ، قال: «**الله أكثر**»[(١)]

فقد يظن الإنسان أنه لم يُجَب، وقد أجيب بأكثر مما سأل، أو صرف عنه من المصائب والأمراض أفضل مما سأل، أو أخَّره له إلى يوم القيامة.

فاللهم تقبل صيامنا وقيامنا ودعاءنا،
ومُنَّ علينا بالعتق من النار يا حي يا قيوم



---

(١) صحيح الأدب المفرد.

[١٣]

رمضان يُربِّينا على العطاء والبذل

ففي الصيام تكثُر الصدقات وتزداد الخيرات، وتعم النفحات وتخرج الزكوات، ولقد درج على ألسنة الناس أن رمضان شهر الجود والإحسان والبر.

* وحسبك ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وكَانَ أَجْوَدُ ما يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»، يعني أنه ﷺ كان من جهة الإسراع بالجود أسرع من الريح، وعبَّر بالمرسَلة إشارة إلى دَوام هُبوبها بالرحمة، وإلى عُموم النَّفع بِجُوده كما تعمُّ الريح المرسلة جميعَ ما تهبُّ عليه.(١)

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وكان جودُه ﷺ، بجميع أنواع الجود، من بذْل العلم والمال، وبذل نفسه لله تعالى في إظهار دِينه وهِداية عِباده، وإيصال النَّفع إليهم بكلِّ طريقٍ؛ من إطعام جائعهم ووعْظ جاهِلهم، وقَضاء

(١) فتح الباري، بتصرف يسير.



حَوائِجهم، وتحمُّل أثقالهم»(١)

وفي تَضاعُف جُودِه ﷺ في شهر رمضان فوائدُ كثيرةٌ منها:

١ـ شرف الزمان ومضاعفة أجر العمل فيه، فالأعمال تتضاعف لأسباب، منها الزمان، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**عمرة في رمضان تَعدِل حجةً معي**»

٢ـ **ومنها**: إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعاتهم، فيستَوجِب المعين لهم مثل أجرهم، كما أنَّ مَن جهَّز غازيًا فقد غَزَا، ومَن خلفه في أهله فقد غَزَا، كما في حديث زَيْدِ بن خَالِدٍ الجُهَنِيِّ، أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ فَطَّرَ صَائمًا، كانَ لهُ مِثْلُ أجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يَنْقُصُ من أجْرِ الصَّائِمِ شيْءٌ**»(٢)

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُحبُّ للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان، اقتداء برسول الله ﷺ، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغُل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم»(٣)

٣ـ **ومنها**: أنَّ الجمْع بين الصِّيام والصَّدقة من مُوجِبات الجنة؛ كما في حديث عليٍّ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ في الجنَّة غُرَفًا يُرَى ظُهورها من بُطونها، وبُطونها من ظُهورها**»، قالوا: لِمَن هي يا رسول الله؟ قال: «**لِمَن**

---

(١) لطائف المعارف.

(٢) أخرجه أحمد وابن ماجه والترمذي، وصححه الألباني.

(٣) لطائف المعارف.

طيِّب الكلام، وأطعَمَ الطَّعام، وأدامَ الصِّيام، وصلَّى بالليل والناس نِيام»(١)، وهذه الخِصال كلُّها تجتمع للمؤمن في رمضان، والموفَّق من وفَّقه الله.

٤- **ومنها**: أنَّ الصِّيام لا بُدَّ أنْ يقع فيه خللٌ ونقصٌ، وتكفير الصيام للذنوب مشروطٌ بالتحفُّظ ممَّا ينبغي التحفُّظ منه؛ فالصدقة تَجبُر ما فيه من النَّقص والخلل؛ ولهذا وجَبت في آخِر شهر رمضان زكاةُ الفطرِ طهرةً للصائم من اللغو والرَّفث.

٥- **ومنها**: أننا نجود في رمضان، كما جاد الله علينا فيه، فإنه سبحانه جاد على خلقه في هذا الشهر بأنواع من جوده وكرمه، جاد عليهم بفرض الصيام تهذيبًا لنفوسهم، وجاد عليهم بنزول القرآن فيه بيِّنات وهدى للناس، وجاد عليهم بفتح أبواب الجنة، وجاد عليهم بتصفيد الشياطين، وجاد عليهم بثواب الصائمين الذي لا يُقدِّر قَدْره إلا الله.

٦- أن الصائم إذا جاد على غيره كان بمنزلة مَن ترَك شهوته لله وآثر بها غيره على حبه لها، وهذا معنى عظيم مقصودٌ في الصيام، فللصائم بذلك نصيب من قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:٨-١٠]، فلما رفعوا نار الحرمان وحرَّها عن المساكين، وأنزلوهم بفرح ما يَسُد ذُلَّهم وحاجتهم جُوزوا من جنس أعمالهم: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان:١١-١٢]، والجزاء من جنس العمل.

---

(١) صحيح سنن الترمذي.




* وعن أبي هُريرةَ، أن النبي ﷺ قال: «**إذا كانَ أوَّلُ لَيْلةٍ من شَهْرِ رَمَضانَ، صُفِّدَتِ الشَّياطِينُ وَمَردةُ الجِنِّ، وَغُلِّقتْ أبْوَابُ النّارِ، فلم يُفتحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحتْ أبْوَابُ الجَنَّةِ، فلم يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، ويُنادِي مُنادٍ: يا باغيَ الخيرِ أقبِلْ، ويا باغيَ الشرِّ أقصِرْ، ولله عُتَقاء من النار، وذلك كلَّ ليلةٍ**»(١)

فبيْن الصيام وبين الجود والإنفاق ارتباط وثيق، ذلك أن الأغنياء عندما يمتنعون في نهار رمضان عن الطعام والشراب طاعة لله، وقد يُقاسون حرّ الجوع وألم العطش، فإن هذا يجعلهم يتذكرون إخوانهم من المسلمين الذين يقاسون هذه الآلام طيلة أيام السنة أو معظمها، فتمتدُّ الأيدي إلى عونهم، سواء كان ذلك من خلال الزكوات المفروضة، أو الصدقات المستحبة، أو نحوها، فيظل هذا المعنى قائمًا في نفوسهم، وهكذا يربينا رمضان على العطاء والبذل.

من فضائل العطاء والجود:

والجود في رمضان وفي غيره، من أكبر الأعمال فضلًا، ومن أعظمها ثوابًا وأجرًا، وحسبك:

* قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤].

* وقال سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا

(١) صحيح الترمذي.

كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة:٢٤٥].

* وعن عُقبة بن عامر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ امرِئٍ في ظِلِّ صدقتِه، حتى يُقْضَى بين الناسِ**»(١)

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أَوْ فَصِيلَهُ**»(٢)

* وعن أبي مسعودٍ الأنصاري رضي الله عنه، أنَّ رجلًا تصدَّق بناقةٍ مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**ليأتينَّ يومَ القيامةِ بسبعِمائةِ ناقةٍ مخطومة**»(٣)

* وقال ﷺ: «**ما فتح رجلٌ باب عطية، صدقةٍ أو صلة، إلا زاده الله بها كثرةً**»(٤)

* وقال ﷺ: «**ما مِن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»(٥)

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) صحيح سنن النسائي.

(٤) أخرجه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة.

(٥) متفق عليه.



واحرص رعاك الله على:

ـ **تأدية الصدقة على أكمل وجه**، فلا تؤذِ مشاعر غيرك، إشارةً أو تلميحًا أو تصريحًا، فالمسلم المحسِن لا يُبطل صدقاتِه بالمن والأذى، بل يتذكر فضل الله سبحانه عليه، ويُحسِن إلى الناس كما أحسن الله تعالى إليه؛ قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة:٢٦٤].

ـ **واحرص كذلك على إخفاء الصدقة:**

فإن المؤمن ينبغي أن يَلزم الإخلاص في كل أعماله، ويتجنب كل سبيل يؤدي إلى الرياء، وقد تقتضي الضرورةُ إعلان الصدقة، تحقيقًا لمصلحة شرعية؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة:٢٧١]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضلُ من إظهارها؛ لأنه أبعدُ عن الرياء، إلا أن يترتبَ على الإظهار مصلحة راجِحة؛ من اقتداء الناس به، فيكون أفضلَ من هذه الحيثية»(١)

* وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعةٌ يُظِلُّهمُ الله** عَزَّوَجَلَّ **يومَ القيامة، يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: ـ وذَكَر منها ـ ورجل تصدقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما صنعَت يمينُه**»(٢)

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) صحيح سنن النسائي.

* وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**مَن قال: لا إله إلا الله، خُتِم له بها، دخل الجنة، ومن صام يومًا ابتغاءَ وجه الله خُتِم له به، دخلَ الجنة، ومَن تصدَّق بصدقةٍ ابتغاءَ وجه الله خُتِم له بها، دخل الجنة**»(١)

ـ **واحرص كذلك أن** تتحرَّى لصدقتِك محتاجًا صالحًا تقيًّا؛ كما جاء في الحديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لا تُصَاحِب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلا تقي**»(٢)، فكلما كان الفقير أقرب إلى ربه، أشدَّ حاجة للصدقة، كان أثَرُ الصدقة أكبر وأعظم، وكما قيل: إن مالَك لا يسَعُ كلَّ أحد، فخُصَّ به أهل الفضل.

فاللهم مُنَّ علينا بفضلك، واجعلنا من أهل الفضل والإحسان



---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح سنن الترمذي وأبي داود.




[١٤]

رمضان يُربِّينا على الاعتناء بأهلينا وأولادنا والعمل على تربيتهم

إذا كان الله تعالى قد أمرنا أن نقي أولادنا نار جهنم، بأن نعمل على تأديبهم بآداب الإسلام، وتنشئتهم على معاني الإيمان، وأن نمنعهم الفتن ما ظهر منها وما بطن، عمومًا، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، فلأن نقومَ بذلك في رمضان أولى وأعظم.

فعن الربيع بنت معوذ قالت: «كنا نَصوم ونُصوِّم صبياننا الصغار منهم، ونذهب بهم إلى المسجد، فنجعل لهم اللعبة من العهن [الصوف]، فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناه إياه، حتى يكون عند الإفطار»(١)، أي أعطيناه هذا الصوف يتلهى به حتى يحين موعد الإفطار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ يأمر الله تعالى بوقاية النفس والأهل، وهم زوجتك وأولادك من بنين وبنات، ومَنْ هم تحتَ ولايتِك وتَصَرُّفِك، نارَ جهنم.

---

(١) والحديث في الصحيحين.

احفظوا أهليكم من النار، لا تَقذفوا بأبنائكم في جهنَّم، ولا يكون ذلك إلا بالأخذ بأيديهم إلى مرضاة الله وتجنبِ ما يسخطه سبحانه.

قال أميرُ المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه : «أدِّبوهم وعلِّموهمُ الخيرَ»(١)

وقال قتادةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به، وتساعدهم عليه، فإذا رأيتَ لله معصية؛ زجرتَهم عنها»(٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان مَلِكٌ كثيرَ المال، وكانت له ابنة لم يكن له ولد غيرها، وكان يحبها حبًّا شديدًا، وكان يلهيها بصنوف اللهو، فمكث كذلك زمانًا، وكان إلى جانب الملك عابدٌ، فبينا هو ذات ليلة يقرأ إذ رفع صوته وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فسمعت الجارية قراءته، فقالت لجواريها: كفوا، فلم يكفوا، وجعل العابد يردد الآية والجارية تقول لهم: كفوا، فلم يكفوا، فوضعت يدها في جيبها فشقت ثيابها، فانطلقوا إلى أبيها فأخبروه بالقصة، فأقبل إليها، فقال: يا حبيبتي ما حالك منذ الليلة؟ ما يبكيك؟ وضمها إليه، فقالت: أسألك بالله يا أبت، هل لله عَزَّوَجَلَّ دار فيها نار وقودها الناس والحجارة؟ قال: نعم، قالت: وما يمنعك يا أبت أن تخبرني، والله لا أكلتُ طيِّبًا، ولا نمتُ على ليِّنٍ حتى أعلم أين منزلي في الجنة

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير ابن كثير.



أو النار![1]

الأب الواعي لا يتحمَّل أن يرى فلْذة كبدِه يتألم من مرض ألمَّ به، فكيف يرضى أن يقذف به في النار؟

الأب الواعي، والأم الواعية يخافان على ولدِهما من مصائب الدنيا، فكيف لا يخافان عليه من هول الآخرة؟ يخافان عليه من المستقبل القادم، فكيف لا يخافان عليه من مصيره في الآخرة، وهو المستقبل الحقيقي؟

أيها الأب الكريم: أنت محاسب أمام الله تعالى عن كل من تعولهم، أنت مسؤولٌ عن كل تقصيرٍ صدر منك، ما يغني عنك أمام الله تعالى إذا جئته وقد علَّمت ولدك أنواع الدراسات، وألبسته أجود الألبسة، وأطعمته أشهى الأطعمة، وأمتعته بخير متاع الدنيا؟ إن هذا كله لن يغني عنك من الله شيئًا، ما دام ولدُك لم يتخلق بأخلاق الإسلام، عند ذلك سيقول: يا رب إن السبب في معصيتي لك وإعراضي عنك أبي! فإنه لم يربني على طاعتك، ولم يُرشدني إلى تعظيمك، وإنما أهمل تربيتي، ترك صحبةَ السوء تربيني، ترك مواقع الإنترنت تربيني، تركني والبيئةَ الفاسدة!

وأنت أيها الزوج: كيف حال زوجتك مع الله؟ هل تقوم بطاعة الله على أحسن وجه؟ هل تحافظ على الصلوات الخمس؟ هل تزكي مالها؟ هل تصوم فرضها؟ هل تطيع زوجها على وجه يرضي الله عَزَّوَجَلَّ؟ من المسؤول عن ذلك كله؟ إنها ستوجِّه مقدارًا كبيرًا من اللوم عليك، فأنت وليها، وأنت

---

(١) صفوة الصفوة.

القائم عليها، ولو أمرتها لأتمرت، ولو نهيتها لانزجرت.

وأنت أيتها الزوجة: هل تعرفين أين تذهب ابنتُك؟ هل رأيتِ لباسَها؟ هل وجدتيه لباسَ حشمة مُرْضٍ للرب، أم لباسَ تبرجٍ وسفور، مبدٍ للزينة، ومظهر للعورة؟ وهل تدرين من جلساء ولدِك؟ لماذا لم تمثلي القدوة الحسنة لأولادك من بعدك؟

* «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»(١)

والراعي هو المؤتمَن على ما قام عليه، فالأب مؤتمن على أولاده، والأم مؤتمنةٌ على أولادها، فهما مسؤولان عن ذلك، كما قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاهُ، حفظَ ذلكَ أمْ ضيَّعَ، حتى يسألُ الرجلَ عنْ أهلِ بيتِهِ**»(٢)

فما أنتم قائلون إن سألكم رب العزة جل جلاله، هل حفظتم أم ضيعتم؟

(١) رواه البخاري.
(٢) صحيح الترغيب والترهيب.



كيف نقي أنفسنا وأهلينا وأولادنا من النار؟

الجواب:

١ـ أن تكون قدوة:

ألَّا يرى أهلُك منك إلا خيرًا، ألا يسمعوا منك إلا خيرًا، ألا يطَّلعوا منك إلا على خير، أن تكون من أهل القرآن، أن تكون محافظًا على الصلوات، بارًا بوالديك، واصلًا لرحمك، محسنًا مع جارك، مكرِمًا لضيفك، فهذا وحده دعوةٌ إلى الله وأمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر، فإذا أمرتَ بأمرٍ امتثلوا أمرك، وإذا نهيت عن شيءٍ اجتنبوا نهيك، فبذلك تكون أبًا صالحًا، يُرجى من أهلك وأولادك الخير، وبذلك تكون قد وَقيتَ نفسك من النار.

ابْدَأْ بنفسك فانهَها عنْ غَيِّها .:. فإذا انتهت عنه فأنتَ حَكيمُ

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثْلَه .:. عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عَظيمُ

٢ـ أن تُعلِّمهم التوحيد الذي هو حق الله على العبيد:

أن تُعلِّق قلوبهم بالله، وتعلِّمهم محبة الله، ورقابة الله، والخوفَ من الله، قال تعالى ـ حكايةً عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ حين حضره الموت، وإذا به يذكِّر أبناءه التوحيد، ويطمئن على عقيدتهم وإيمانهم ـ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]

٣.أن تأمرهم بالتمسك بسنة النبي ﷺ والاقتداء به:

* أن تغرس في نفوسهم أن محبته ﷺ أكثَرَ من النفس والأهل والمال والناس أجمعين، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(١)

٤.أن تعودِّهم على الصلاة، وتربيهم عليها، وتحببهم فيها:

وتأمرهم بها إذا بلغوا سن السابعة، وتضربهم عليها إذا بلغوا سن العاشرة، امتثالًا لأمر النبي ﷺ بذلك.

إن كثيرًا من الآباء ـ عياذًا بالله ـ يتساهلون في أمر أولادهم بالصلاة وضربهم عليها، وهذا هو سبب تخلف كثيرٍ منهم عنها في الكِبَر.

الصلاة أهمّ ما شرعه الله بعد الشهادتين، يجب أن نجعلها محطَّ اهتمامنا، فهي عمود الدين، من حفظها فقد حفِظ الدين، ومن ضيعها فقد ضيَّع الدين، قال الله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه:١٣٢]، وقال عن إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥].

* وقال ﷺ: «**مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سنين، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجعِ**»(٢)

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح سنن أبي داود.



٥- أن تربيهم على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال والآداب:

من البر والصلة وحسن الجوار، وتنهاهم عن ضد ذلك من العقوق والقطيعة وسوء الجوار وأذية الناس.

٦. أن تختار لهم الصحبة الصالحة، وتعرِّفهم ضرورتها، وتُحذِّرهم صحبة السوء، وتعرِّفَهم ضررَها:

* فالأمر كما قال ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١)

٧- أن تربي بناتك على طاعة الله:

والمحافظة على الصلاة في وقتها، وعلى الحجاب والحشمة والقرار في البيت، وعدم الخلطة بغير المحارم حتى ولو كانوا من أقاربهن، خصوصًا في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن.

فالواجب على رب الأسرة ألا يتساهل في شيءٍ من ذلك، كما يجب أن يُكثر من الجلوس في بيته مع زوجته وأولاده، فإن وجوده يمنع شرًا كثيرًا ويُزِيل الوحشة بينه وبينهم.

٨- أن تُطهِّر بيتك من الوسائل المفسدة:

كالأغاني والصور المحرمة، والإنترنت المفتَّح ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا.

---

(١) صحيح سنن أبي داود.




٩. أن تصحب أهلك وأبناءك إلى مجالس العلم:

فإنها مجالس عظيمة تُعرِّف بالله، وتَربِط العبدَ بالله، وتُغيِّر كثيرًا، وحسبك أنها مجالسُ خير وبر، تَحفُّنا فيها الملائكة، وتغشانا فيها الرحمة، وتنزل علينا فيها السكينة، ويَذكرُنا الله تعالى فيمن عنده.

١٠. وأخيرًا:

* قال ﷺ: «**علقوا السَّوط حيث يراه أهل البيت، فإنه أدب لهم**»(١)، فتربية الأولاد تكون ما بين الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، وكلُّ ذلك من الرحمة.

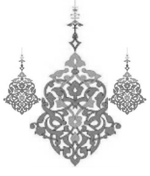
فالصبي أمانةٌ عند والديه، وقلبُه الطاهر جوهرةٌ ساذجة، وهي قابلةٌ لكل نقْش، فإن عُوِّد الخير نشأ عليه وشاركه أبواه ومؤدِّبه في ثوابه، وإن عُوِّد الشر نشأ عليه، وكان الوزر في عنق وليِّه، فينبغي أن يصونه ويؤدبه ويهذبه، ويعلِّمه محاسن الأخلاق، ويحفَظه من قرناء السوء، ولا يعودَه التنعم، ولا يحبِّبَ إليه أسباب الرفاهية، فيضيعَ عمرُه في طلبها إذا كبِر.(٢)

فاللهم هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إمامًا



(١) رواه الطبراني، وحسّن إسنادَه الهيثمي في «مجمع الزوائد»، وقال الألباني في صحيح الجامع: حسن.

(٢) مختصر منهاج القاصدين.

[١٥]

رمضان يُربِّينا على حفظ القلب وإصلاحه وضبطه

من خصائص رمضان:

* **من خصائص رمضان:** أن للقلوب فيه جولة، وللنفوس فيه صولة، فالعاقل من يستغل هذه الجولة أو تلك الصولة، فيعتني بإصلاح نفسه وضبط قلبه، فإن النبي ﷺ قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

قال الحافظ ابن رجب: «ذكر النبي ﷺ كلمة جامعة لصلاح حركات ابن آدم وفسادها، وأنّ ذلك كلَّه بحسب صلاح القلب وفساده، فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع الجوارح، فلم تنبعث إلا إلى طاعة الله واجتناب سخطه، فقنعت بالحلال عن الحرام، وإذا فسد القلب فسدت إرادته، ففسدت الجوارح كلها وانبعثت في معاصي الله عَزَّوَجَلَّ وما فيه سخطه ولم تقنع بالحلال؛ بل أسرعت في الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق، فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا ينفع يوم القيامة عند الله غيره، وهو أن يكون سليمًا عن جميع ما يكرهه الله من إرادة ما يكرهه الله

---

(١) متفق عليه.

ويسخطه ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادته ومحبته ما يحبه الله وإرادة ذلك وكراهة ما يكرهه الله والنفور عنه.

والقلب الفاسد: هو القلب الذي فيه الميل إلى الأهواء المضلة والشهوات المحرمة، وليس فيه من خشية الله ما يكف الجوارح عن اتباع هوى النفس؛ فالقلب ملك الجوارح وسلطانها، والجوارح جنوده ورعيته المطيعة له المنقادة لأمره، فإذا صلح الملك صلحت رعاياه وجنوده المطيعة له المنقادة لأوامره، وإذا فسد الملك فسدت جنوده ورعاياه المطيعة له المنقادة لأوامره ونواهيه»(١)

ومن الملاحظ: أن العبودية في رمضان وفي غيره إنما تقوم على مراقبة الله والحياء منه وتعظيمه، وكل ذلك مداره على القلب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو أنهم عظَّموا الله وعرفوا حقَّ عظمته، وحَّدُوه وأطاعوه وشكروه؛ فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياءُ منه بحسب وقاره في القلب»(٢)

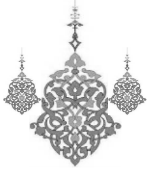
فيا أيها الصائم تفقَّد قلبَك، واحرِص على ثباته، فإن رسول الله ﷺ كان يدعو ويقول: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(٣)، لأن القلب إذا ثبتَ ثبتت الجوارح.

---

(١) فتح الباري، لابن رجب.

(٢) الفوائد.

(٣) أخرجه أحمد، وانظر الصحيحة.



فلْيصُم قلبُك قبل أن تصوم جوارحُك:

لِيصُم قلبك عن الانطواء على حقد أو حسد أو كبر أو رياء أو غرور أو حب صدارة وظهور، فذلك بداية صلاحه، ثم إذا عرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وتدبَّرَ كلامَه، وعظَّم شرعَه، فذلك تمام صلاحِه، وعندئذٍ يُرسِلُ أوامرَه إلى سائر الأعضاء: أن استقيموا لربكم فقد استقمتُ، وأخلصوا له فقد أخلصتُ.

واعلم رحمك الله:

أنك مسؤول يوم القيامة عن قلبك، وعن عبوديته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ـ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ـ: «يَا ابْنَ آدَمَ، حَمَلْتُكَ عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ، وَزَوَّجْتُكَ النِّسَاءَ، وَجَعَلْتُكَ تَرْبَعُ، وَتَرْأَسُ، فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ»(١)، والشكر عمل القلب في الأصل، وسائر أعمال القلوب، من الصدق والإنابة والإخبات والتوبة والصبر، ونحوها، الله سائلٌ عبدَه عنها.

فإن للقلب كسبًا ككسب الجوارح وعملًا كعملها، والله تعالى أعلن أنه يؤاخِذ العبد على كسب القلب ثوابًا وعقابًا، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [البقرة:٢٢٥]

---

(١) أخرجه أحمد، وسند صحيح.

* وفي الصحيحين قال ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقَتَل أحدُهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار**»، قيل: يا رسول الله! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»

فانظر: دخل المقتول النار بشيءٍ وَقَرَ في قلبه ليس غير!

* وقال ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ، بأفسد عليهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(١).

فانظر كيف كان الحرص [العمل القلبي] أفسدَ للدين من إفساد الذئبين الجائعين للغنم!

فإن قيل: كيف يحفظ العبدُ قلبَه؟ كيف يُصلِحه؟

الجواب: بإخراج المواد الضارة، وإدخال المواد النافعة:

ـ أما إخراج المواد الضارة:

* فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله! أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**»، قالوا: «**صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب ؟**»

* قال: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»(٢)

(١) رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني.
(٢) رواه ابن ماجه وغيره، وانظر صحيح الترغيب والترهيب.




* وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»(١)

* وقال ﷺ: «إياكم وشركَ السرائر»، قالوا: يا رسول اللهَ وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلي، فيزيِّن صلاته جاهدًا، لِما يرى من نظر الناس إليه! فذلك شرك السرائر»(٢)

* وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحٌ مطاع، وهوىً متَّبع، وإعجاب المرء بنفسه»(٣)

* وقال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصُدُّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة»(٤)

ـ وأما إدخال المواد النافعة:

* فقد قال ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: «لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»(٥)

* وقال ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»(٦)

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه.
(٣) رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان، وانظر صحيح الجامع.
(٤) رواه البيهقي في الشُّعب وذكره الحافظ في الفتح.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه مسلم.

ولهذا قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]

❊ ويقول ﷺ: «**إن قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحدٍ يقلِّبه كيف يشاء**» ثم قال: «**اللهم مصرفَ القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»(١)

أُخَيَّ: لقد صليتَ اليوم خمس صلوات، فكم مرة دعوت بهذا الدعاء؟ مع أنك أحوج إليه من رسول الله ﷺ، والفتن اليوم التي تعصف بالقلوب أعمُّ وأطغى، والقلب أضعف وأوهن، فداوِ قلبك.

هذا هو العلم، وعليك العمل، فابدأ مستعينًا بالله.

إذا أردتَ شفاءَ قلبِك، وعَافِيَتَكَ، فعليكَ بصدقِ اللجُوءِ إلى اللهِ والاستعانة به، والإقبال على القرآن، وتعلم العلم النافع، وأكل الحلال واتقاء الشبهات، ومطالعة القلب لأسماء الله الحسنى وصفاته العلا، والإكثارِ مِنَ النَّوافِلِ، والصَّلاةِ بالليلِ والناسُ هجوعُ، وعليك بِملازمةِ الأذكارِ، وصُحبةِ الأخيارِ، فإنّهم خيرُ مُعينٍ بعد الله على شفاءِ القلبِ السقيمِ وسلوكِ الصِّراطِ المُستقيم، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨].

---

(١) رواه مسلم.



وقد أحسن من قال:

دَوَاءُ قَلْبِـكَ خَمْـسٌ عِنْـدَ قَسْـوَتِهِ ∴ فَـدُمْ عَلَيهَـا تَفُـزْ بِـالخَيْرِ وَالظَّفَـرِ

خَــلَاءُ بَطْــنٍ وَقُــرْآنٌ تَــدَبَّرُهُ ∴ كَـذَا تَضَـرُّعُ بَـاكٍ سَـاعَةَ السَّـحَرِ

كَـذَا قِيَامُـكَ جُـنْحَ اللَّيـلِ أَوْسَـطَهُ ∴ وَأَن تُجَـالِسَ أَهْـلَ الخَيْـرِ وَالخَبَـرِ

فاللهم املأ قلوبنا بحبك، واجعلنا من أهلك، يا كريم يا منَّان



[١٦]

رمضان يُربِّينا على حفظ السمع

من معاني الصوم التي تُحقِّق آثارَه، ويترتب عليها فوائدُه وثمراتُه: صوم الأذن عن سماع الحرام، من غِيبة أو نميمة، أو تجسس، أو لعن أو طعن، أو لحن شيطان.

* قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «إِذَا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ، وَبَصَرُكَ، وَلِسَانُكَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْمَحَارِمِ، وَدَعْ أَذَى الْخَادِمِ، وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ يَوْمَ صِيَامِكَ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَ فِطْرِكَ وَصَوْمِكَ سَوَاءً»(١)

فإن العبد مسؤولٌ عن سمعه، كما هو مسؤولٌ عن قلبه وبصره، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء:٣٦]

السمع نعمةٌ عظيمة:

تُعرف بها الخيرات، ويُهتدى من خلالها إلى طرق البر والأعمال الصالحات، فبها يُسمع كلام الله، ويُسمع كلام رسوله ﷺ، وبها تُتلقى العلوم وتكون المخاطبات والتفاهمات؛ فما أعظم النعم التي تصل إلى

(١) الزهد، لابن المبارك.

الإنسان من سمعه، بل إن السمع بوابةٌ رئيسة، ومدخلٌ عظيم للقلب؛ فمن وُفِّق لحفظ سمعه فقد وُفق إلى حفظ قلبه، ونفسه، وسلوكه.

قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر:٨]، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّعِيمُ: صِحَّةُ الْأَبْدَانِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ، يَسْأَلُ اللهُ الْعَبِيدَ فِيمَ اسْتَعْمَلُوهَا؟ وَهُوَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْهُمْ.(١)

فالله تعالى سائلك يوم القيامة عن سمعك، ماذا كنت تسمع به؟ فحقيق على عبدٍ منَّ الله عليه بهذه النعمة وأكرمه بهذه العطية، أن لا يستعملها إلا في طاعة الله، فذلك شكر الله على هذه النعمة.

واعلم أن: المسموعات تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ـ **مسموعٌ يحبه الله ويرضاه**: كسماع الذكر والعلم، والقرآن، وأعظم شيءٍ تشْرُف الأسماع باستماعه وتزدان الآذان بالإصغاء إليه: كلام الله، أشرف الكلام وأجلُّه على الإطلاق.

قال الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣]

❁ **عن عبدِ اللهِ بنِ عروةَ بنِ الزُّبيرِ، قال**: قلتُ لجَدَّتي أسماءَ: كيفَ كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ إذا سَمِعُوا القرآنَ؟ قال: تدمَعُ أعينُهم، وتَقشَعِرُّ

---

(١) تفسير الطبري.

جُلودُهم؛ كما نَعَتَهم اللهُ تعالى.(١)

* وكم لاستماع القرآن من أثر على النفوس والقلوب، عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ عليّ**»، قلت: يا رسول الله، أقرأُ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نعم، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، قال: «حسبك الآن»، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان.(٢)

٢ـ **مسموعٌ محرم:** يكرهه الله، كسماع اللهو والباطل، ومزامير الشيطان، والتجسس، ونحو ذلك مما حرَّم الله.

قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:٦-٧]

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] قال: الغناء وأشباهه.(٣)

عَنْ أَبِي الصَّهْبَاءِ، قَالَ: «سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) سنن سعيد بن منصور.
(٢) متفق عليه.
(٣) صحيح الأدب المفرد.




مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] قَالَ: هُوَ وَاللهِ الْغِنَاءُ»(١)

قَالَ مجاهد: «هُوَ اشْتِرَاءُ الْمُغَنِّي وَالْمُغَنِّيَةَ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ، وَالِاسْتِمَاعُ إِلَيْهِمْ، وَإِلَى مِثْلِهِ مِنَ الْبَاطِلِ»(٢)

عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ صَوْتَ زُمَّارَةِ رَاعٍ، قَالَ: فَجَعَلَ إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَعَدَلَ عَنِ الطَّرِيقِ وَجَعَلَ يَقُولُ: يَا نَافِعُ أَتَسْمَعُ؟ فَأَقُولُ: نَعَمْ، فَلَمَّا قُلْتُ: لَا، رَاجَعَ الطَّرِيقَ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَفْعَلُهُ.(٣)

كتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: «خذهم بالجفاء فهو أمنع لإقدامهم، وقلةِ الضحك فإن كثرته تميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن؛ فإنه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بهما ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشبُ بالماء»(٤)

❊ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفِرُّونَ مِنْهُ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكُ(٥) يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٦)

(١) ذم الملاهي لابن أبي الدنيا.

(٢) تفسير مجاهد.

(٣) صحيح ابن حبان، وانظر تحريم آلات الطرب، للألباني.

(٤) ذم الملاهي لابن أبي الدنيا.

(٥) والآنك: الرصاص المذاب.

(٦) رواه البخاري.




* وفي الحديث: «وَالْأُذُنُ زِنَاهَا الِاسْتِمَاعُ»(١)، أي إلى ما نهى الله عنه.

انظر حال رَجلين: أحدهما يستمع إلى القرآن أو إلى موعظةٍ مؤثرة أو إلى خطبةٍ نافعة ؛ كم لذلك من أثر على قلبه من زيادةٍ في الإيمان وقوةٍ في اليقين، وحرصٍ على الطاعات، وإقبالٍ على العبادة؟

والثاني: يستمع إلى اللهو والغناء، كم لهذا السماع من أثر عليه بانصراف نفسه عن الخيرات وبُعْدها عن العبادات وإقبالها على المنكرات!

هل تحرك الأغنية أو اللهو أو الرقص في قلب الإنسان حبًا للخيرات ورغبة في الطاعات؛ فاعتبروا يا أولي الأبصار.

٣ـ مسموعٌ أباح الله للعبد سماعه: وهو كل ما يحتاج العبدُ إلى سماعه، مما لم يَشغل عن الله، ولم يَرِدْ فيه نهي.

والواجب على المؤمن أن يحرص على استعمال سمْعِه فيما أوجبه الله عليه، وفيما أباحه الله له وليحذر من خلاف ذلك.

فإن لله عَزَّوَجَلَّ في كل عضوٍ من الأعضاء أمرٌ، وله فيه نهيٌ، وله فيه نعمة؛ فمن استعمل العضو فيما أمَرَه الله به، وجنَّبه ما نهاه الله عنه، فإنه قد قام بشكر ذلك العضو.

يَـا أُذُنُ لا تسـمعي غيـرَ الهُـدى أبـدًا .·. إنّ اســـــتماعَك لــــــلأوزار أوزارُ

---

(١) صحيح أبي داود.




حفظ السمع من خصال أهل الإيمان:

فقد قال تعالى ـ عن أهل الإيمان ـ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]

وفي مطلع سورة «المؤمنون» جعل الله تعالى حفظ السمع مرتبةً عظيمة تلي مرتبةَ الخشوع في الصلاة، حين قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:١-٣]

ولمَّا سأل رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِ عائشة رضي الله عنها ـ في حادثة الإفك ـ فَقَالَ: «**يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ؟ مَا رَأَيْتِ؟**» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ.(١)

وأمر ﷺ بالاستعاذة بالله من شر السمع، فعَنْ شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ؟ قَالَ: فَأَخَذَ بِكَتِفِي، فَقَالَ: «**قُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي**»(٢)، فعلَّمه ﷺ هذه الدعوة العظيمة، وأرشده إلى هذه التعوُّذات، التي يجدر بنا أن نَتعوَّذ منها، لا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه أنواع الفتن وتنوعت فيه الآلات والأدوات، في الأيدي والبيوت والسيارات، مما جعل كثيرًا من الناس يتورَّط في سماع المحرمات، مما كان

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح الأدب المفرد.




سببًا في مرض القلوب وضعف الإيمان ورقَّة الدين، فيأتي رمضان ليحفظ العبدُ سمعَه فيحفظَ صومَه.

فاللهم احفظ علينا آذاننا، فلا نسمع إلا بك






[١٧]

رمضان يُربِّينا على حفظ البصر

من معاني الصوم كذلك التي تُحقِّق آثارَه، ويترتب عليها فوائدُه وثمراتُه: صوم البصر عن النظر إلى الحرام.

بل حفظ البصر ثمرة عظيمة من ثمرات الصوم، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «**من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**»(١)

فالصائم ينال هذه الفضيلة، ويسلم من معاطب إطلاق البصر وآفاته؛ فالعين مرآةُ القلب، وإذا أطلق الإنسان بصرَه أطلق القلبُ شهوتَه، ومن أطلق بصرَه دامت حسرتُه؛ فأضرُّ شيءٍ على القلب إرسالُ البصر.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «إِذَا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ، وَبَصَرُكَ، وَلِسَانُكَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْمَحَارِمِ، وَدَعْ أَذَى الْخَادِمِ، وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ يَوْمَ صِيَامِكَ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَ فِطْرِكَ وَصَوْمِكَ سَوَاءً»(٢)

---

(١) متفق عليه.

(٢) الزهد، لابن المبارك.




فإن العبد مسؤولٌ عن بصره، كما هو مسؤولٌ عن قلبه وسمعه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦]، فهل أعددنا لهذا السؤال جوابًا؟

فهنيئًا لمن سخَّر بصره فيما يُرضي ربَّه، فكان شاهدًا له يوم الدين! ويا خسارة من سخَّره فيما يُغضب الله تعالى فكان شاهدًا عليه يوم الدين!

البصر نعمةٌ عظيمة:

* قال تعالى في معرِض تذكير العبد بنعمه عليه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد:٨]، فبهما يرى ما حوله، ويُميِّز الأشياء، ويعرف الأحجام والألوان، وبهما يتفكَّر في خلق الله تعالى وما بثَّه في هذا الكون من آيات دالَّةٍ على وحدانيته وعظيم صنعه، وغير ذلك من الفوائد العظيمة؛ ولذلك عَظُم ثَوابُ مَن ابتُلي بالعمى وصبَر، وابتَغى الأجرَ في ذلك واحتسب؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**إذا ابتليتُ عبدي بحبيبَتَيه** -يريد عينَيه- **ثم صبَر، عوَّضتُه الجنَّةَ**»(١)

وقد سمَّى الله تعالى العَينينِ بالمحبوبتينِ؛ لأنَّهما أَحَبُّ أعضاءِ الإنسانِ إليه؛ لِمَا يَحصُلُ له بفَقْدِهما مِن الأسَفِ على فَواتِ رُؤيةِ ما يُريدُ رُؤيتَه في الدنيا مِن خيرٍ فيُسَرُّ به، أو شَرٍّ فيَجتنِبُه

وغض البصر من قبيل شكر تلك النعمة، والعبد إن لم يشكر نعم الله عليه، إما أن يُعذَّب بها، أو يُحرَمَها، ولكن إن شكرها زاده الله نعمًا على نعمه،

(١) رواه البخاري.




كما قال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

هل سِرتَ يومًا في طريق فشاهدت فاقد البصر؟ هل تذكرت ما أنت فيه من نعمة؟ هل حمدت الله عليها؟ إذن لماذا تستخدمها في معاصي الله؟

ولقد عرَف سلفنا رضي الله عنهم هذه النعمة، فحفظوها حتى حفظها الله عليهم.

فعن حسان بن سنان رضي الله عنه، أنه خرج يوم العيد، فلما رجع قيل له: يا أبا عبد الله، ما رأينا عيدًا أكثر نساءً منه، فقال: سبحان الله، ما تلقتني امرأة حتى رجعت.(١)

وعن وكيعٍ قال: خرجْنا مع سفيان الثوري في يوم عيد، فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا غضُّ أبصارنا.(٢)

حفظ البصر من صفات أهل الإيمان:

* قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضّوا من أبصارهم عمّا حرّم عليهم فلا ينظروا إلّا إلى ما أباح لهم النّظر إليه، وأن يغضّوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتّفق أن وقع البصر على محرّم

---

(١) حلية الأولياء.

(٢) حلية الأولياء.

من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعًا»(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفوس، وزكاةُ النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش، والظلم، والشرك، والكذب، وغير ذلك»(٢)

قال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إذا مرّت بك امرأة فغمّض عينيك حتّى تجاوزك»(٣)

عَنْ عَاصِمٍ الْأَحْوَلِ، قَالَ: قُلْتُ لِلشَّعْبِيِّ: الرَّجُلُ يَنْظُرُ الْمَرْأَةَ لَا يَرَى مِنْهَا مُحَرَّمًا قَالَ: «مَا لَكَ أَنْ تَتْبَعَهَا بِعَيْنِكَ»(٤)

وَقَالَ الزُّهْرِيُّ - فِي النَّظَرِ إِلَى الَّتِي لَمْ يَحِضْنَ مِنَ النِّسَاءِ -: لَا يَصْلُحُ النَّظَرُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُنَّ، مِمَّنْ يُشْتَهَى النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً.(٥)

وعن وهيب قال: لأن أدع الغيبة أحب إلي من أن يكون لي الدنيا منذ خُلِقَت إلى أن تفنى، فأجعلها في سبيل الله، ولأن أغض بصري أحب إلي من أن تكون لي الدنيا منذ خلقت إلى أن تفنى فأجعلها في سبيل الله، ثم تلا ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠].(٦)

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) العبودية.
(٣) الورع لابن أبي الدنيا.
(٤) المصنف لابن أبي شيبة.
(٥) صحيح البخاري.
(٦) حلية الأولياء.




والصحيح الذي عليه جمهور العلماء وأكثر الصحابة، أنه يحرم على المرأة النظر إلى الأجنبي، كما يحرم عليه النظر إليها، للآية، ولأن الفتنة مشتركة، وكما يَخاف الافتتانَ بها، تخاف الافتتان به.

❊ وقد أفادت الآية: أن حفظ البصر هو السبيل إلى حفظ الفرج، ويؤيد ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**كُتب على ابن آدم نصيبُه من الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى، و يصدق ذلك الفرجُ و يكذبه**»(١)

وعن جرير بن عبد الله قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة؟ فأمرني أن أصرف بصري»(٢)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونظرُ الفجأةِ هي النظرة الأولى، التي تقع بغير قصد؛ فما لم يتعمدْه القلبُ لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانيةَ تَعَمُّدًا أَثِم؛ فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يصرفَ بصرَه، ولا يستديم النظر، فإنَّ استدامته كتكريره»(٣)

❊ وعن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «**يا علي، لا تُتْبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الآخِرة**»(٤)

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) روضة المحبين.

(٤) صحيح سنن أبي داود.

* وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينظر الرّجل إلى عورة الرّجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة**»(١)

* وعن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه، أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اضمنوا لي ستّا من أنفسكم أضمنْ لكم الجنّة: اصدقوا إذا حدّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا ائتُمِنتم، واحفظوا فروجكم، وغُضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم**»(٢)

فالمؤمن ينبغي أن يَحفظ بصرَه من النظر إلى المحرم، وما لا يجوز النظر إليه، فيحفظ الرجال أبصارهم عن النظر إلى النساء الأجنبيات، وتحفظ النساء أبصارهن عن النظر إلى الرجال الأجانب، ويحفظ الجميع أبصارهم عن كل ما يُعرض على الشاشات من الفُحش، والعُرْي، والفجور، ونحو ذلك، وعن كل ما يثير الفتنة ويُهيِّج الشهوة.

كما يحفظ الجميع أبصارهم عن النظر إلى ما لا فائدة في النظر إليه من أحوال الناس الخاصة، وأموالهم، وممتلكاتهم، ونحو ذلك.

ومما يعين على حفظ البصر:

١. استحضار العبد اطلاع الله عليه، وإحاطته به، لكي يخاف، ويستحي منه

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة.

وعن سعيد بن زيد أن رجلًا قال لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «**أُوصيك أن تستحي من الله عَزَّوَجَلَّ كما تستحيي رجلًا صالحًا من قومك**»(١)

٢. أن يتذكر العبد أن بصره سيشهد عليه يوم القيامة

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٠].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك فقال: «**هل تدرون ممَّ أضحك؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تُجِرني من الظلم؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، والكرام الكاتبين شهودًا، فيَختم على فِيه، فيقال لأركانه: انطِقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلِّي بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنكن كنت أناضل**»(٢)

٣. أن يتذكر العبد منافع، وثمرات غض البصر:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومن ثمراته:

أ- أنه امتثالٌ لأمر الله، الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١]

---

(١) الأحاديث المختارة، وانظر صحيح الجامع.

(٢) رواه مسلم.

ب- أنه يمنع وصول أثر السهم المسموم ـ الذي لعل فيه هلاكَه ـ إلى قلبه، قال الشاعر:

كـل الحـوادث مبـداها مـن النظـرِ ∴ ومعظـم النّـار مـن مستصـغر الشـررِ
والمـــرء مـــا دام ذا عـــين يُقلّبهـــا ∴ في أعين الغِيد[١] موقوفٌ على الخطرِ
كـم نظـرةٍ فتكـت في قلـبِ صـاحبها ∴ فتـك السـهام بـلا قـوسٍ ولا وتـرِ
يســرُّ نــاظره مــا ضــر خــاطره ∴ لا مرحبًــا بســرورٍ عــاد بالضــررِ

وقال آخر:

وَكُنْتَ متى أرسَلتَ طَرفكَ رَائِدًا ∴ لِقَلْبِـكَ يومًـا أَتعَبَتْـكَ المنـاظرُ
رأيـتَ الـذي لَا كُلَّـهُ أنـتَ قَـادِرٌ ∴ عَليـهِ وَلَا عَـنْ بَعْضِـهِ أنـتَ صـابرُ

ج- أنه يورث القلب سرورًا، وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك بقهر عدوه بمخالفة نفسه وهواه[٢]، فعن أبي قتادة، وأبي الدهماء: أن النبي ﷺ قال: «**إنك لا تدع شيئًا لله عَزَّوَجَلَّ، إلا أبدلك الله به ما هو خير لك منه**»[٣]

د- أنه يكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يكسب القلب ظلمة، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر، فقال تعالى: ﴿قُل

---

(١) الحِسان.
(٢) الداء والدواء.
(٣) أخرجه أحمد، وصححه محققو المسند، وصححه الألباني في الضعيفة.

لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [النور:٣٠].

ثم قال إثر ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور:٣٥].

أي مَثل نوره في قلب عبده المؤمن الذي امتثل أوامره، واجتنب نواهيه، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان.(١)

٤. الزواج:

وهو من أنفع العلاجات وأقواها في هذا الباب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج**»(٢)

وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من شر البصر الذي يؤدي إطلاقه إلى كل شر، فعَنْ شَكَل بْنِ حُمَيْدٍ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي تَعَوُّذًا أَتَعَوَّذُ بِهِ؟ قَالَ: فَأَخَذَ بِكَتِفِي، فَقَالَ: «**قُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي**»(٣)

---

(١) الداء والدواء.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح الأدب المفرد.

فعلَّمه ﷺ هذه الدعوة العظيمة، وأرشده إلى هذه التعوُّذات، التي يجدر بنا أن نَتعوَّذ منها، لا سيما في هذا الزمن الذي كثرت فيه أنواع الفتن وتنوعت فيه الآلات والأدوات، في الأيدي والبيوت والسيارات، مما جعل كثيرًا من الناس يتورَّط في النظر إلى المحرمات، مما كان سببًا في مرض القلوب وضعف الإيمان ورقَّة الدين، فيأتي رمضان ليحفظ العبدُ بصرَه فيحفظَ صومَه.

فاللهم احفظ علينا أبصارنا، فلا نُبصر إلا بك






[١٨]

رمضان يُربِّينا على العفة

[حفظ الفرج]

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ استطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيتزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»(١).

فأوضح النبي ﷺ أن الصوم وقايةٌ للصائم وسبيل لعفته؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، والصوم يُضيِّق تلك المجاري ويُذكِّرُ بالله العظيم، فيضعُف سلطان الشيطان ويقوى سلطان الإيمان.

فالصوم يقوِّي الإرادةَ، ويدرِّب الصائمَ على أن يمتنع باختياره عن شهواته؛ فَيصِل بذلك إلى حالةٍ نفسية بالغةِ السُّمُو، ويروِّض نفسه رياضةً عمليةً على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق.

والعفة التي ينبغي للعبد أن يُرَوِّض نفسَه عليها: ألا يكون الإنسان عبدًا لشهواته، مسترسلًا مع كافة رغباته؛ فالنفس متطلعة لا تقف عند حد.

---

(١) متفق عليه.

ومَـنْ يطعـمُ الـنفسَ مـا تشـتهي ∴ كمـن يُطْعِـمُ النـارَ جـزلَ الحطـبْ

ولا يكون من وراء اتباع كافة الشهوات إلا إذلالُ النفس، وموتُ الشرف، والضعة والتسفّل.

الأمر بالتعفف، والحث عليه:

ولهذا حث النبي ﷺ على العفة، وبيَّن سبيل الوصول إليها، ذلك لأن المجتمع الذي يتحلى أبناؤه بهذا الخلق الكريم، مجتمع محترم، له كلمته ومهابته، يرفض الخضوع لغير الله، ويأبى أن يعيش على هامش الحياة.

العفة: صونٌ للفرد المسلم، صونٌ للأسرة المسلمة، صونٌ للمجتمع المسلم، صونٌ للدولة المسلمة من الشذوذ والأهواء والانحرافات.

* قال تعالى - وهو يصف عباده المؤمنين المصلين -: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥-٧]

* وقال تعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور:٣٣]

* ويأمر النبي ﷺ بالعفة، فيقول: «**برُّوا آباءكم تبَرَّكم أبناؤكم، وعِفوا تعفَّ نساؤكم**»(١)، ويقول: «**اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمنْ لكم الجنة: اُصدقوا إذا حدَّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتُمنتم، واحفظوا فروجكم،**

---

(١) رواه الطبراني وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.



وغضوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديَكم»(١)

* ويقول ﷺ: «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتَب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»(٢)

وإنما تتحقق هذه العفة بما يلي:

١. غض البصر عما حرم الله:

فالنظرة سهم مسموم من سهام إبليس، وهي بريد الزنا، لذلك قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]

قال ابن القيم: «فلما كان غض البصر أصلًا لحفظ الفرج بدأ بذكره، وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته»(٣)

٢. ترك مصافحة المرأة الأجنبية:

ولا يخفى ما تُحدثه هذه المصافحة في القلوب السليمة من أماني، وما تُلقى فيها من وساوس، ولذلك قال ﷺ: **«لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخْيط من حديد، خيرٌ له من أن يمس امرأة لا تحل له»**(٤)

---

(١) رواه أحمد وغيره وصححه الألباني.
(٢) رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني.
(٣) روضة المحبين.
(٤) رواه الطبراني وصححه الألباني.




وقال ﷺ : «إني لا أصافح النساء»(١)

٣. ترك الخلوة بالمرأة الأجنبية:

* عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا لا يخلُوَنَّ رجل بامرأةٍ إلا كان ثالثهما الشيطان**»(٢)

* وقال ﷺ : «**إياكم والدخولَ على النساء**»، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو(٣)؟ قال: «**الحمو الموت**»(٤)

وكم جرّ علينا التسيُّب من عار ودمار، **وصدق من قال:**

لا تـأمننّ علـى النسـاء ولـو أخـًا ∴ مـا في الرجـال علـى النسـاء أمـين

إن الأمـين وإن تحفَّـظ جُهْـدَهُ ∴ لابـد أن بنظـرة سيخـون

٤. ترك الاختلاط المحرم:

لحفظ الأعراض والأنساب، وحراسة الفضائل، والبعد عن الرِّيب والرذائل، وعدم إشغال المرأة عن وظيفتها الأساسية في بيتها، حُرِّم الاختلاط، سواء في التعليم، أو في العمل، والمؤتمرات، والندوات، والاجتماعات العامة والخاصة، وغيرها.

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني.

(٣) الحمو: أخو الزوج وأقاربه.

(٤) متفق عليه.




* قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ﴾ [الأحزاب:٥٣]، والمتاع: الحاجة، فإذا احتاج أحدهما [الرجل والمرأة] أن يسأل الآخر، فليسأله من وراء ساتر أو حجاب.

* وعَنْ حَمْزَةَ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِيهِ» أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ: **«اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ(١)، عَلَيْكُنَّ بِحَافَّاتِ الطَّرِيقِ فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْصَقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ»(٢)**

٥. ترك التبرج:

وهو إظهار المرأة من بدنها ما يجب إخفاؤه.

* قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ﴾ [الأحزاب:٣٣]

وقال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، قال السعدي في تفسيره لهذه الآية: «أي، لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتُعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة، ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحًا، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يُخاف من وقوعه، فإنه يُمنع منه، فالضرب

---

(١) أي تَسِرْنَ في وسطه.

(٢) صحيح سنن أبي داود.

بالرِّجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه»(١)

ولا يخفى أن ظهور المرأة للأجانب، وهي كاشفة عما لا يحل كشفه، وهى مرتدية لثياب شفافة، قد أظهرت عورتها، أو ضيقة قد أبدت فتنتها، أو زينةً في نفسها قد لفتت نظر الغير إليها، لا يخفى أنها بذلك قد أعلنت عن نفسها قصدت أو لم تقصد.

٦. اجتناب الأغاني والمعازف:

❊ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي عامر الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ(٢)، وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ**»(٣)

قال الفُضَيل بن عِيَاض: الغناء رُقْيَة الزنا.(٤)

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنه رُقْيَة الزنا ومُنبِت النفاق وشَرَك الشيطان وخمرة العقل، وصَدُّه عن القرآن أعظم من صدِّ غيره من الكلام الباطل؛ لشدة ميل النفوس ورغبتها فيه»(٥)

---

(١) تفسير السعدي.

(٢) الزنا.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي.

(٥) إغاثة اللهفان.

فإذا حصل غض البصر، وترك المصافحة المحرمة، والخلوة المحرمة، والاختلاط المحرم، والتبرج، واجتُنبت المعازف، سادت العفة في المجتمع، وقلت الأوجاع، وتقلص الغلاء، ورُفع البلاء، والصوم عونٌ على ذلك كلِّه.

فاللهم ارزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى



[١٩]

رمضان يُربِّينا على حفظ اللسان

* حينما يقول النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»(١)، علِمنا أن اللسان إذا لم يكن محفوظًا مُصانًا، فإنه لا معنى للصوم، ولا طائل من ورائه.

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي السَّمْعِ مِنِّي تَصَاوُنٌ ∴ وَفِي بَصَرِي غَضٌّ وَفِي مَنْطِقِي صَمْتُ
فَحَظِّي إِذَنْ مِنْ صَوْمِي الْجُوعُ وَالظَّمَأُ ∴ وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي صُمْتُ يَوْمِي فَمَا صُمْتُ

فجعل النبي ﷺ الفيصل، بين الصيام الحقيقي والصيام الصوري؛ حفظ اللسان وضبطه عن قول الزور والباطل.

«مَن لَم يدَع قَولَ الزُّورِ والعمَلَ به» أي من لم يترك القول الباطل والكلام المحرّم أثناء صومه، من الكذب وشهادة الزور، والغيبة والنميمة والقذف والشتم، والقول على الله بغير علم، والتدخل فيما لا يعني، وغيرها مما يجب على الإنسان تركه واجتنابه.

«فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» فمن حقق الأمرين: ترك

(١) رواه البخاري.




المفطرات، وترك المنهيات، تم له أجر الصائمين، ومن لم يفعل ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

يقول شيخ الإسلام: والأعمال الصالحة لها مقصودان: حصول الثواب، واندفاع العقاب، فإذا فعلها مع المنهيات من الغيبة والنميمة وأكل الحرام وغيره فاته الثواب.(١)

يقول ابن الجوزي: ولا بد من ملازمة الصمت عن الكلام الفاحش والغيبة، فإنه ما صام من ظل يأكل لحوم الناس.(٢)

وقال ﷺ: «**وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُم، فلا يرفُثْ يومئذٍ، وَلَا يَصخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**»(٣)

«**فلا يرفُثْ يومئذٍ**» الرفث: هو الجماع ومقدماته، ويطلق ويراد به الفحش.

«**وَلَا يَصخَبْ**» أي لا يصرخ ولا يصيح ولا يخاصم، ولا يرفع صوته بالهذيان والسخرية والاستهزاء والاعتداء على الآخرين بكلامه.

«**فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**» فهذا مما يُشعر الطرفين كليهما على تعظيم الشهر، والحرص على الصوم من أن يُخدش بسباب أو زورٍ أو جهل.

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى.

(٢) التبصرة.

(٣) رواه مسلم.




قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «إِذَا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ، وَبَصَرُكَ، وَلِسَانُكَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْمَحَارِمِ، وَدَعْ أَذَى الْخَادِمِ، وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ يَوْمَ صِيَامِكَ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَ فِطْرِكَ وَصَوْمِكَ سَوَاءً»(١)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليس الصيام من الطعام والشراب وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف»(٢)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إنَّ الصيام ليس من الطعام والشراب، ولكن من الكذب والباطل واللغو»(٣)

وعن مجاهد قال: خصلتان من حفظهما سلم له صومه: الغيبة والكذب.(٤)

وعن أبي العالية قال: الصائم في عبادة ما لم يغتب.(٥)

وهذا يُحتِّمُ عليك إذا حضرت مجلسًا فيه شيء من الغيبة أو النميمة ونحوهما، أن تُنكِرِ ذلك بطريقة مناسبة، وتذكَّر دائمًا قول النبي ﷺ: «مَن ردَّ عن عِرض أخيه، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»(٦)، واعلَم أنك إن جاملْت ولم تفعل، فقد تكون مشاركًا؛ فإن أنكرت ولم يُقبل منك، ففارِق

---

(١) الزهد، لابن المبارك.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) صحيح سنن الترمذي.



ذلك المجلس؛ ليسلم لك لسانُك وصيامُك.

فبذلك تعلم أن من معاني الصوم التي تُحقِّق آثارَه، ويترتب عليها فوائدُه وثمراتُه: صوم اللسان عن الحرام.

إن شأن اللسان عظيم:

ليس كشأن سائر الجوارح، فالجوارح تتفاوت في الأهمية، وقد قالوا عن اللسان: إنه عضَلة خلْفها كلُّ مُعضِلة، وفي الحديث: «**إن ابن آدم إذا أصبح فإن أعضاءه كلَّها تكفِّر اللسان،**[1] **تقول: اتَّقِ الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوجَجْتَ اعْوَجَجْنا**»[2]

ولمَّا علَّمَ النبيُّ ﷺ معاذًا أركان الإسلام، قال له: «**ألا أخبرُك بمِلاكِ ذلِك كلِّه؟**» قال: بلَى يا نبيَّ اللهِ، فأخذَ بلسانِهِ، وقال: «**كُفَّ عليكَ هذا**»، فقال: يا نبيَّ اللهِ، إِنَّا لمؤاخَذونَ بما نتكلَّمُ بهِ؟ قال: «**ثَكلتكَ أمُّكَ يا معاذُ، وَهل يَكبُّ النَّاسَ في النَّارِ علَى وجوهِهِم، أو علَى مناخرِهِم، إلَّا حصائدُ ألسنتِهِم**»[3]

فالكلمة الواحدة شأنها خطير، فبكلمة يدخل الإنسان الإسلام، وبكلمة يخرج منه، وبكلمة يتزوج، وبكلمة يُطلق، وهكذا، فالكلمة حَريَّة بأن ننتبه لها، ونصونَها، ونُهذِّبَها عن الشوائب الفاسدة، فالكلمة تصنع الأفاعيل،

---

(١) أي: تخضع له وتذل، انظر رياض الصالحين، للنووي.
(٢) صحيح سنن الترمذي.
(٣) صحيح سنن الترمذي.

وتأتي بالأعاجيب، إنَّ آفة واحدة من آفات اللسان قد تذهب بروح الصيام وتزهقها، فعن عَلْقَمَةَ عَنْ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ الْمُزَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: فَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنعنِيه حديثُ بلالِ بْنِ الْحَارِثِ.(١)

عبودية اللسان:

فكما نقول: نفسُك إن لم تشغلْها بالحق شغلتك بالباطل، كذلك نقول: اللسان إذا لم ينشغل بعبوديته، شُغل بالباطل، وعبودية اللسان متنوعة بين الواجب والمستحب، وترك الحرام والمكروه، فمن ذلك: تلاوة القرآن وتدبره، والكلِمُ الطيب، والأذكار المقيدة والمطلقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومذاكرة العلم، وصدق الحديث، ونحو ذلك، ومنه المستحب؛ كعموم الأذكار وقراءة القرآن، ومذاكرة العلم وتوابعه، ونحو ذلك، من عمل بذلك لم يجد فرصةً للوقوع في المنهي عنه، أو المحرَّم.

ومما يشوِّقك إلى عبودية اللسان:

أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: «إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيْنَا، فَبَابٌ نَتَمَسَّكُ بِهِ جَامِعٌ؟ قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»(٢)، ما

(١) أخرجه أحمد، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

(٢) أخرجه أحمد، والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني.

أحوجنا دائمًا إلى ذلك عمومًا، وفي شهر رمضان خصوصًا! فإن الذكر من أيسر الأعمال وأخفها، ومن تركها فليس لثقل فيها، وإنما هو توفيق لقوم وحِرمان لآخرين، فاطمَح أن تكون من الموفَّقين، فما أيسر العمل وأعظم الأمل في ذكر الله تبارك وتعالى.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنه لكل مكلف أن يحفظ لسانَه عن جميع الكلام إلا كلامًا تظهرُ المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركُه في المصلحة، فالسُنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء»(١)

فاللهم احفظ علينا ألسنتنا يا كريم



---

(١) الأذكار.

[٢٠]

رمضان يُربِّينا على سلامة الصدر

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «صومُ شهرِ الصبرِ، وثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ؛ يذهبن وَحَرَ الصدرِ»(١).

* وعن عمرو بن شرحبيل، عن رَجُل من أصحاب النبي ﷺ، أنه قال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ، صَوْمُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ»(٢)

وَحَر الصدر: بفتح الواو والحاء المهملة بعدهما راء: هو غشه وحقده ووساوسه.

فإن قيل: لماذا؟ وكيف؟

لأن الصائم قد انشغل بالطاعة، وأقبل على الرب، وتدبر كلامَه، واستشفى مِن خِلاله، إذ كيف يتلذذ بمناجاة الله من لم يصفِّ قلبه تجاه إخوانه المسلمين؟! أم كيف يرجو التوفيق من امتلأ قلبه ضغينة على إخوانه المسلمين؟! كيف ينجح المربي إن لم يحمل صفاء القلب ونقاء المشاعر؟!

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح سنن النسائي.

والحق أنه يستحيل قيام حضارة سليمة على قلوب عليلة، وأنه ما لم تستقم الضمائر وتصفُ النيات، فلن تصلح الأحوال، ولن تنجح الحضارات ولا الدعوات.

فقد حرص دين الإسلام حرصًا شديدًا على أن تكون الأمةُ قلبًا واحدًا، تسودها عواطف الحب والتعاون على البر والتقوى، والتناصح البنَّاء الذي يثمر إصلاح الأخطاء، مع صفاء القلوب وتآلفها، دون غل ولا حسد، ولا كيد ولا بغي؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]؛ فالأخوة الإيمانية تعلو على كل خلاف(١) مهما اشتدت وطأته، وبلغت حِدَّتُه.

* وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**».

فمن السمات العظيمة والصفات الكريمة الدالة على كمال إيمان الصائمين ونُبل أخلاقهم: سلامة صدورهم تجاه إخوانهم المؤمنين، فليس في قلوبهم غلٌّ أو حسدٌ أو ضغينة، كما أنه ليس في ألسنتهم غيبةٌ أو نميمةٌ أو كذبٌ أو وقيعة، بل لا يحملون في قلوبهم إلا المحبة للمؤمنين، وإرادة الخير لهم، كما لا تجري على ألسنتهم إلا الكلمات الطيبة والدعوات الصادقة، فهم في زمرة من أثنى الله عليهم وزكَّاهم بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا

---

(١) سائغ.

غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠]، فنعتَهم ربُّهم بخصلتين عظيمتين وخلَّتين كريمتين: الأولى تتعلق باللسان؛ فليس في ألسنتهم تجاه إخوانهم المؤمنين إلا النصح والدعاء، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، والخصلة الثانية تتعلق بالقلوب؛ فقلوبهم سليمة تجاه إخوانهم المؤمنين، ليس فيها غلّ أو حسد أو حقد أو ضغينة أو نحو ذلك.

وكم بين صدق اللسان وسلامة القلب، من روابط وعلائق، فكلاهما يدل على الآخر، وعلامةٌ عليه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ**»، قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «**هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ**»(١)

وسلامة الصدر واللسان هما من أوضح الدلائل وأصدق البراهين على تمام الصيام وكماله، وقد كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يعدُّون الأفضل فيهم أسلمَهم صدرًا ولسانًا.

قال إياس بن معاوية بن قرة: «كان أفضلهم عندهم(٢)، أسلمَهم صدورًا وأقلهم غيبة»(٣)

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) أي عند السلف.

(٣) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق.

وقال سفيان بن دينار: «قلت لأبي بشير - وكان من أصحاب عليٍ رضي الله عنه -: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا، قال: كانوا يعملون يسيرًا ويؤجرون كثيرًا، قلت: ولم ذلك؟ قال: لسلامة صدورهم»(١)

قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: دُخِلَ عَلَى أَبِي دُجَانَةَ رضي الله عنه وَهُوَ مَرِيضٌ - وَكَانَ وَجْهُهُ يَتَهَلَّلُ - فَقِيلَ لَهُ: مَا لِوَجْهِكَ يَتَهَلَّلُ؟ فَقَالَ: مَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٌ أَوْثَقُ عِنْدِي مِنَ اثْنَتَيْنِ: كُنْتُ لَا أَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِينِي، وَالْأُخْرَى فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيمًا»(٢)

ورمضان فرصة ذهبية وهِبة إِلهِيَة لتسلَم الصدور والألسن من كل الكدورات والأدواء؛ فليست العبرة من صيامك أن تمتنع عن الطعام والشراب ويُفطر قلبك على الحقد والحسد والبغض لعباد الله، أو يفطر لسانك على الغيبة والنميمة والغش والكذب والسباب والشتم؛ لأن من كان هذا حاله فما استفاد من صيامه إلا الجوع والعطش، وفي الحديث: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»(٣)

ألا فلنغتنم هذا الشهر المبارك لعلاج أمراض القلوب والألسن، ولنحرص كل الحرص على طهارتها وسلامتها؛ لأنه بسلامتها تسلم للمرء نفسه ودينه ودنياه، وبفسادها يفسد الدين والدنيا.

---

(١) رواه ابن السري في كتابه الزهد.

(٢) سير أعلام النبلاء.

(٣) رواه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الألباني.

ومما يعين المسلم على سلامة الصدر واللسان:

١. إخلاص العمل لله تعالى:

* فمن أخلص لله، سلِم قلبُه، وخلا من كل مكروه، كما قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ**(١)**: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»(٢).

٢. دعاء الله تعالى، واللجوء إليه، والإقبال عليه:

فقد أنبأنا الله تعالى بدعاء المؤمنين وقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

٣. الإقبال على كتاب الله الذي أنزله شفاءً لما في الصدور:

كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، فكلما أقبل العبدُ على كتاب الله، تلاوة وحفظًا، وتدبرًا وفهمًا، شُفِي صدرُه، وسلِم قلبُه.

٤. الحرص على إفشاء السلام بين المسلمين، والحرص على البدءِ به:

فالسلام عنوان المحبة والإخاء، وبرهان الصفاء والنقاء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى**

---

(١) أي مع هذه الثلاث، لا يستطيع أن يحمل في قلبه غلًا ولا حسدًا.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.




تحابُّوا، أولا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(١)

٥.الإكثار من الصدقات، ومداومة الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين:

فقد قال سبحانه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل:١٧-١٨]؛ أي: يتطهر بصدقته مِن الذنوب والعيوب.

٦.حسن الظن، وذلك بحمل الكلمات والمواقف على أحسن المحامل:

فإنّ سوء الظن بالناس مما يغرس الحقد والكراهية في النفوس؛ ولذلك حرَّمه الإسلام واعتبره كذبًا وإثمًا؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذبُ الحديث** .....»

قال عمر رضي الله عنه: «لا تَظُنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا»(٢)

٧.التماس الأعذار، وإقالة العثرات، والتغاضي عن الزلات:

فالمؤمن يلتمس المعاذير، والمنافق يلتمس العثرات.

يقول ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا بلغك عن أخيك شيءٌ، فالتمس له عذرًا،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مداراة الناس، لابن أبي الدنيا.




فإن لم تجد، فقل: لعل له عذرًا لا أعلمُه»(١)

وتذكَّر دائمًا قول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»(٢)

٨. الرضا بما قسم الله:

فإنَّ العبد إذا أيقن أن الأرزاق مقسومة مكتوبة رضي بحاله، ولم يجد في قلبه حسدًا لأحد من الناس على خير أعطاه الله إياه.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١]، وفي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**انظروا إلى مَن أسفل منكم، ولا تنظروا إلى مَن هو فوقكم؛ فهو أجدرُ ألا تزدروا نعمةَ الله عليكم**»(٣)، فالمرء إذا نظر إلى من هو فوقه ممن فُضِّل عليه في الدنيا استصغر ما عنده من نِعَم الله، فكان سببًا لمقته، وإذا نظر إلى من هو دونه شَكَر النعمة وتواضع وحمد ربه، وكان ذلك سببًا لسلامته ونجاته.

فمَن رضي بقضاء الله لم يُسخِطه أحد، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسَد؛ فليجاهد المسلم نفسَه على دفع الخواطر الداعية إلى الحسد؛ فإن الحسد مِن أخبث الذنوب التي تصيب القلوب وتوغر الصدور.

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: ابن حبان.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.



٩. تخلَّص من الجدال:

الجدال يقسي القلوب، ويوغر الصدور، خصوصًا إذا لم تكن الغاية من ورائه الوصول إلى الحق.

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا زعيم بيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقًا، وبيتٍ في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيتٍ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»(١)

١٠. وأخيرًا: إصلاح ذات البَيْن:

لابد أن يُنتدب قوم من العقلاء والصلحاء لمهمة إصلاح ذات البين بين خاصة الأمة، فضلًا عن عامتها، وذلك ليس اقتراحًا، بل هو تذكير بشعيرة منسية، يبدو أن الخلافات شغلتنا عنها، قال جلَّ شأنه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾ [الأنفال:١]، فلا ينبغي ترك المشاكل تتكاثر، والصراعات تتفاقم، والعداوات تدوم حتى توغَر الصدور، وتُملأ القلوب حقدًا وكراهية وبغضًا؛ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٠].

فاللهم إنا نسألك قلوبًا سليمة، وألسنًا ذاكرة، ونفوسًا طائعةً مطمئنة



---

(١) رواه أبو داود وحسنه الألباني.




[٢١]

رمضان يُربِّينا على ضبط الشهوات

شهوات الطعام والشراب والفرج والنظر، والكلام والسماع وغيرها؛ كما قال ﷺ: «**كلُّ عمل ابن آدم يضاعَف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عَزَّوَجَلَّ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**»(١)، وفي السنن بسند صحيح: «الصيام جُنة..»، أي وقايةٌ من الشهوات، وضبطٌ لها.

ففي رمضان يترك العبد شهوة الطعام والشراب والزوجة، وهي شهواتٌ مباحة! فكيف به إذن مع الشهوات الممنوعة، كشهوة السماع المحرَّم، والنظر المحرم، والكلام المحرم، ونحوها، لا شك سيكون أكثر لها تركًا، وأشدَّ لها اجتنابًا.

قال الحافظ ابن رجب: «الصيام مجردُ تركِ حظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جُبلت على الميل إليها لله عَزَّوَجَلَّ، ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غيرِ الصيام، نعم يوجد في الصلاة، إلا أن مدتها لا تطول، فإذا اشتد توقانُ النفس إلى ما تشتهيه، مع قدرتها عليه، ثم تركَتْه لله عَزَّوَجَلَّ في موضع لا

---

(١) متفق عليه.




يطلع عليه إلا اللهُ، كان ذلك دليلًا على صحة الإيمان؛ فإن الصائم يعلم أن له ربًا يطَّلع عليه في خلوته، وقد حَرَّم عليه أن يتناول شهواتِه المجبولَ على الميل إليها في الخلوة، فأطاع ربه، وامتثل أمره، واجتنب نهيه؛ خوفًا من غضب الله وعقابه، ورغبة فيما عند الله من أجره وثوابه، فشكَرَ الله له ذلك، واختص لنفسه عمله هذا من بين سائر أعماله، ولهذا قال بعد ذلك: «إنه ترك شهوتَه وطعامَه وشرابه من أجلي»(١)

من أسمى معاني الصيام:

من أسمى معاني الصيام، أنه تهذيب للنفس وليس تعذيبًا لها، النفس تحتاج إلى تهذيب عن طريق قطع مألوفاتها وضبط شهواتها؛ لأن إطلاق عنان الشهوات لها من أوسع أودية الهلاك وأسباب العذاب.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالإنسان زُيِّنت له الشهوة على سبيل الامتحان والابتلاء، فالمؤمن يأخذُ ما أحلَّه الله له منها، وفي الوقت ذاتِه، لا يجعل هذا الحلالَ شاغلًا له عن الطاعة، فإن فعل ذلك سيكون أبعدَ ما يكون عن الشهوة المحرَّمة، وهذا المعنى حرفيًا نتربَّى عليه في رمضان.

---

(١) وظائف رمضان.

ومما يعين على تحقيق هذا المعنى: استشعار نعيم الآخرة، وأن المؤمن في الغدِ القريب في جِنان الخُلد، لا يُحال بينه وبين شيء، ولهذا قال الله تعالى ـ بعد هذه الآية ـ: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٥].

ومن جملة الامتحان والابتلاء: أن أصحاب السوء، الذين يتبعون الشهوات، دون أن يفرِّقوا بين محرَّمٍ ومباح، يعملون بكل ما أوتُوا من قوة على إغراق غيرِهم معهم، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧]، هذا ما يريده الله لك صراحةً، وهذا ما يريده أصحاب السوء لك صراحةً، فاختر لنفسك، واعلم أن الله تعالى رحِم ضعفك، ولهذا حدَّ لك الحدود، وبيَّن لك المعالم التي تتجول فيها، ونهاك عن تجاوزها، ولها قال بعد هذه الآية: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨].

من مظاهر عظمة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ومن مظاهر عظمة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الاستعلاء بالإيمان على الشهوات، والترفُّع بالدين والمروءة عن دواعي الهوى والفحش، وهو ما أوصله إلى درجة الإحسان، ولها قد تكرر وصفُه بالإحسان في سورة يوسف أكثر من مرة، كما في قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٢٢]




وكيف كان من المحسنين؟

الجواب في الآية التي تليها: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٣-٢٤].

وفي قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرًاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزًا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦]، وفي قوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف:٧٨]، كل ذلك لأنه تحكَّم في الهوى وضبط الشهوة، ولم يُطلِق لها العنان.

لأن النار حُفَّت بالشهوات:

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ» قَالَ: «فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»(١)

---

(١) صحيح سنن أبي داود.

* وأورد هذا المعنى الإمام مسلمٌ في صحيحه ـ مختصَرًا ـ من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات**»

«حُفَّت الجنة بالمكاره» أي: أحيطت بالمكاره، والمكاره: هي ما يكرهه الآدمي من خروج مالٍ عن يده في صدقة، أو فجعة بحميم له، أو خروج نفسه بالجهاد في سبيل الله، أو صبر على لذة محرمة لأجل الله، أو احتساب طعام وشراب وفراق زوجة في صيامٍ ابتغاء وجه الله، أو صبر على برد ماء في إسباغ وضوء، إلى غير ذلك، فلا يصل العبد إلى الجنة، دارِ النعيم المقيم، حتى يجاهدَ نفسه على تحقيق هذه المكاره.

«وحُفَّت النار بالشهوات» أي: أحيطت بالشهوات، شهوةِ الزنا، شهوةِ النظر إلى الحرام، شهوة سماع الحرام، شهوة الكلام المحرَّم، شهوة أكل المال المحرم، إلى غير ذلك، فإذا جاهد العبد نفسه وابتعد عن هذه الشهوات المحرمة، فقد ابتعد عن النار.

وهذا من جوامع الكلم وبديع البلاغة في ذم الشهوات والنهي عنها، وإن رغِبتْها النفوس، والحض على طاعة الله، وإن كرهتها النفوس وشق عليها؛ لأنه إذا لم يكن يوم القيامة غير الجنة والنار ولم يكن بُدّ من المصير إلى إحداهما، فواجب على المؤمنين السعي فيما يُدخل إلى الجنة ويُنقذ من النار، وإن شق ذلك عليهم.

وفي الأثر: «طريق الجنة حزَنٌ بربوة، وطريق النار سهلٌ بسهوة»، والحزن: هو الطريق الوعْر المسلك، والربوة: المكان المرتفع، والسهوة، بالسين

المهملة، هي الموضع السهل الذي لا غِلَظ فيه، ولا وُعورة، فالأول يحتاج إلى مجاهدة في سلوكه، والثاني يحتاج إلى مجاهدة في اجتنابه.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله خلق فينا الشهوات واللذات لنستعين بها على كمال مصالحنا، فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به، فإن ذلك في نفسه نعمة وبه يحصل بقاء جسومنا في الدنيا، وكذلك شهوة النكاح واللذة به، هو في نفسه نعمة وبه يحصل بقاء النسل، فإذا استُعين بهذه القوى على ما أمَرنا، كان ذلك سعادةً لنا في الدنيا والأخرة، وكنا من اللذين أنعم الله عليهم نعمةً مطلقة، وإن استعملْنا الشهوات فيما حرمه علينا بأكل الخبائث في نفسها، أو كسبها بالمظالم، أو بالإسراف فيها، أو تعدَّينا أزواجنا أو ما ملكت أيماننا، كنا ظالمين معتدين غير شاكرين لنعمته...»(١)

وأخيرًا: لا تقترب من مثيرات الشهوة:

ففي زمانٍ قد مُلِئَ بالفتن، وحسبك فتن النت، والفيس بوك، ونحوها، وما يتبع ذلك من مثيرات وملهيات ومضيعات للأوقات، فِرّ، حتى يسلم لك دينُك، كما فَرَّ يوسفُ هاربًا حتى قَدَّتْ قميصَه من دُبر.

فاللهم إنا نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار



(١) الاستقامة.

[٢٢]

رمضان يُربِّينا على الأنس بالله والخلوة به

هذه الخلوة لها أثرها الكبير في إصلاح القلب، وإقباله بكليته على الرب، لأن أكثر ما يُفسد القلب الشواغل التي تصرفه عن الله، كشهوات الطعام والشراب والنكاح وفضول الكلام والنوم والصحبة، مما يُشتت أمرَ القلب ويُفسد اجتماعه على ربه، وهذا مقصدٌ عظيم، من أجله شرع الله تعالى لنا الاعتكاف في بيته الثلثَ الأخيرَ من رمضان.

قال عطاء: «مَثَل المُعْتَكِف كمثل رجلٍ له حاجةٌ إلى عظيمٍ، فجلسَ على بابِه يقولُ: لا أَبرحُ حتى تَقْضِي حاجتي، وكذلك المُعْتَكِف يجلسُ في بَيتِ الله يقول: لا أَبْرحُ حتى يُغْفَرَ لي»(١)

تعظيم العشر الأواخر من رمضان والاستعداد لها:

ولهذا كان النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم مِن بعده يعظِّمون هذه العشر الأواخر ويجتهدون فيها أكثر مما يجتهدون في غيرها.

* فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ

---

(١) شعب الإيمان.




الْأَوَاخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ»(١)، وعنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ»(٢)

(شَدَّ مِئْزَرَهُ): أي اجتهد في العبادة واعتزل النساء؛ فلا يلتذ في تلك الليالي إلا بمناجاة ربه والتقرب إليه، فما أباحه الله له من الجماع في ليالي رمضان يكون منشغلًا عنه بما سواه من العبادة والطاعة طمعًا في أن ينال ثواب هذه العشر ويوفَّق لإدراك ليلة القدر.

(وأَحْيَا لَيْلَهُ): أي شغله بالطاعة، فأحيا نفسه بذلك، لأنه لا تحيا الأرواح ولا الأبدان ولا الأوقات ولا الأعمار إلا بطاعة الله، وهذه هي الحياة الحقيقية: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] فسمى هذه الأجساد مع أنها تدب في الأرض وتأكل وتشرب ميْتة، وذلك لِبُعدها عن الإيمان والطاعة.

(وأَيْقَظَ أَهْلَهُ): أي أقامهم للصلاة وللعبادة في هذه الليالي، وهذا من تمام حرصه على أهله وعنايته بهم أداءً لواجب الرعاية التي استرعاه الله إياها، وحرصًا منه في الدلالة على الخير.

قال الحافظ ابن حجر: «وَفِي الْحَدِيث الْحِرْص عَلَى مُدَاوَمَة الْقِيَام فِي الْعَشْر الْأَخِير، إِشَارَة إِلَى الْحَثّ عَلَى تَجْوِيد الْخَاتِمَة، خَتَمَ اللهُ لَنَا بِخَيْرٍ آمِينَ»(٣)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) فتح الباري.

ومن أعظم صور تعظيم العشر وإحيائها:

الاعتكاف، وهو لزوم المسجد للتفرغ لطاعة الله، وهي سنة عظيمة، حافظ عليها النبي ﷺ، وأصحابه من بعده، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّبِيَّ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ»(١)

* «فلما كان العام الذى قُبض فيه، اعتكف عشرين يومًا»(٢)

* وكان إذا فاته الاعتكاف لعذرٍ، من سفرٍ ونحوه قضاه، فقد روى أحمد في المسند عن أنس قال: «كان النبي ﷺ إذا كان مقيمًا اعتكف العشر الأواخر من رمضان، وإذا سافر اعتكف من العام المقبل عشرين»(٣)

* «وخرج مرةً من اعتكافه في رمضان، ثم قضاه في شوال»(٤)

ومقصود الاعتكاف:

الانقطاع عن الناس ما أمكن، والخلوة بالله تعالى، لينصلح القلب، ويجتمع على خالقه سبحانه، ولذلك ينبغي للمعتكف أن يشتغل بالذكر والقراءة والصلاة والعبادة، وأن يتجنب ما لا يَعنيه من حديث الدنيا، فعن أبي سعيد أنه قال: اعتكف رسول الله ﷺ، فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف الستر، وقال: «**ألا إن كلَّكم مناجٍ ربَّه، فلا يؤذين بعضكم بعضًا، ولا يرفع**

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٣) إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) رواه البخاري عن عائشة.




بعضكم على بعضٍ في القراءة، أو قال في الصلاة...»(١)

* ومن هنا مُنِع المعتكف أن يخرج من معتكَفه لغير عذر، لحديث عائشة رضي الله عنها: «إن كان رسول الله ﷺ ليُدخل عليّ رأسه وهو في المسجد، فأُرَجِّلُه له، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان إذا كان معتكفًا»(٢)

* كما مُنِع من أن يخرج لصلاة الجنازة وعيادة المريض، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: «إنْ كنتُ لَأدخلُ البيت للحاجة، والمريض فيه، فما أسأل عنه إلا وأنا مارّة»(٣)

* وعنها قالت: «السنة على المعتكف ألا يعود مريضًا، ولا يشهد جنازة، ولا يمسَّ امرأة، ولا يباشرَها، ولا يخرج لحاجة إلا لما لابد منه»(٤)

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ مبينًا المقصود من الاعتكاف ـ: «وشرع لهم الاعتكافَ الذي مقصودهُ وروحهُ عكوفُ القلبِ على الله تعالى وجَمْعِيَّتُهُ عليه، والخلوةُ به عن الاشتغال بالخلق، والاشتغَالُ به وحده سبحانه؛ بحيث يصير ذكرُه، وحبُّه، والإقبالُ عليه في محلِّ هموم القلب، وخطراتِهِ؛ فيستولي عليه بدلَها، ويصير الهمُّ كلُّه به، والخطراتُ كلُّها بذكره، والتفكرُ في تحصيل مراضيه، وما يُقرِّب منه؛ فيصير أُنْسُهُ بالله بدلًا عن أنسه بالخلق؛ فَيُعِدُّهُ بذلك لأُنسه به يومَ الوحشةِ في القبور حين لا أنيسَ لَه، ولا ما يَفْرَحُ به سواه؛ فهذا

---

(١) صحيح أبي داود.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني.

مقصودُ الاعتكافِ الأعظم»(١)

ومن أعظم مقاصد الاعتكاف:

تحرِّي ليلة القدر، تلك الليلة العظيمة التي يتحدد مصيرك فيها العام المقبل، فساعات قلائل تغرس سعادة أيام وشهور، فما أغلى هذه الليلة التي عرف عبدُ الله بن عباس فضلها وبيّن قدرها فقال ـ وهو يفسر قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤]ـ: «يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر، حتى يُكتب الحاج يحج فلان، ويحج فلان»(٢)

* وقد قال ﷺ: «**التمسوها في العشر الأواخر**»(٣)

* وقال ﷺ: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(٤)

فاللهم وفِّقنا للقيام بما يرضيك عنا في هذه العشر، واختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين



---

(١) زاد المعاد.
(٢) مختصر قيام الليل: الإمام المروزي.
(٣) متفق عليه.
(٤) شعب الإيمان: البيهقي.




[٢٣]

رمضان يُربِّينا على تزويد العمُر الإنتاجي

لقد كانت الناس في الأمم السابقة تطول أعمارهم حتى يصل عمر بعضهم إلى الألف عام، كما حكى الله ذلك عن نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله تعالى، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤]، فهذه سنينُ الدعوة، وذكر كثير من أهل التفسير أنه عاش بعد ذلك سنين طويلةً بعد الطوفان.

* أما هذه الأمة، فكما يقول ﷺ: «**أعمار أمتي ما بين ستين إلى سبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**»(١)

ولا شك أن أصحاب تلك الأمم كانوا متمكنين من تكثير أعمالهم الصالحة؛ لطول أعمارهم، فيكونون أكثر منا أعمارًا وأعمالًا، فعَوَّض اللهُ الكريم هذه الأمة عن ذلك بأن جعل لها بعضَ الأقوال والأعمال القليلة، إذا قاموا بها أعطاهم عليها الأجور العظيمة على غير العادة.

(١) صحيح سنن الترمذي.

ومن تلك الأعمال التي تطيل العمر الإنتاجي للإنسان: قيام ليلة القدر:

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر:٢-٣]

والمعنى: أن العَمل الصالح في ليلة القدر خيرٌ من عَمَل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.(١)

ومعنى ذلك أنها خير من ثلاثين ألفَ ليلةٍ، وألفُ شهرٍ تزيد على ثلاثة وثمانين عامًا، فهو عمر طويل، لو قضاه المسلم كلَّه في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فليلة القدر وهي ليلة واحدة خير منه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فالسعيد من يسّر الله له قيامها واجتهد في فعل الأعمال الصالحة فيها.

فما أعظمَها من ليلة وما أجلَّها وأكرمَها، وما أوفرَ بركتَها.

قال مالك: بلغني أنّ رسول الله ﷺ أُري أعمار النّاس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنّه تقاصر أعمار أمّته ألاّ يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيرًا من ألف شهر.(٢)

وهكذا يربينا رمضان على تزويد العمر الإنتاجي، والأعمال التي تَزيد العمر الإنتاجي كثيرة، منثورة في الكتاب والسنة، على المرء المسلم أن

---

(١) تفسير البغوي.

(٢) قال ابن عبد البر: «هذا أحد الأحاديث الأربعة التي لا توجد في غير الموطأ، لا مسندا ولا مرسلا، وليس منها حديث منكر ولا ما يدفعه أصل»، والحديث ذكر الألباني ضعفه في ضعيف الترغيب والترهيب.




يبحث عنها، ويحرص على القيام بها.(١)

ومن بركتها: أن الله تعالى أنزل فيها القرآن الذي به هداية البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

ومن بركتها: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ أي جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يتنزل في تلك الليلة مع الملائكة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي من كل أمر من الخير والبركة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيمًا له»(٢)

ومن بركتها: أنها ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ قيل: أن المراد منه تسليم الملائكة على من يذكر الله تعالى في تلك الليلة، وقيل: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي سلامة، والمعنى أنه لا يُعمل فيها داء ولا سحر ولا شيء من عمل الشيطان والكهنة.(٣)

ومن بركتها: أنها ليلة المغفرة، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»(٤)

---

(١) راجع كتاب: كيف تطيل عمرك الإنتاجي، للشيخ محمد بن إبراهيم النعيم.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) تفسير القرآن لأبي مظفر السمعاني، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

(٤) متفق عليه.

وكيف نُدرِك ليلة القدر؟

نُدرِك ليلة القدر بإحياء العشر الأواخر من رمضان، بالصلاة والذكر والدعاء وقراءة القرآن، وغيرها من الأعمال الصالحة، كما قال ﷺ: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**»(١)، وطلبها في أوتار العشر آكد لقول النبي ﷺ: «**الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى**»(٢)

وقد ذكر العلماء أن من حكمة إخفائها، أن يجتهد المسلمون في جميع العشر بطاعة الله تعالى بالتهجد وقراءة القرآن والإحسان، وليتبين بذلك النشيط والمُجِدّ في طلب الخيرات من الخامل الكسلان، ولأن الناس لو علموا عينها لاقتصر أكثرهم على قيامها دون سواها، ولو علموا عينها ما حصل كمال الامتحان.

فطوبى لمن نال فيها سبق الفائزين، وسلك فيها سبيل الصالحين، وويل لمن طُرِدَ في هذه الليلة عن الأبواب وأُغلق فيها دونه الحجاب وانصرفت عنه هذه الليلة وهو مشغول بالمعاصي والآثام مخدوع بالأماني والأحلام مضيِّع لخير الليالي وأفضل الأيام؛ فيا عظمَ حسرتَه ويا شدةَ ندامتَه.

من لم يربح في هذه الليلة الكريمة ففي أي وقت يربح!! ومن لم يُنِبْ إلى الله في هذا الوقت الشريف فمتى ينيب!! ومن لم يزل متقاعسًا فيها عن الخيرات ففي أي وقت يعمل!!

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.




ويستحب للمسلم أن يُكثر فيها من الدعاء، لأن الدعاء فيها مستجاب، وليتخير من الدعاء أجمعه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَدْعُو؟ قَالَ: «**تَقُولِينَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[١]، فإن هذا الدعاء عظيم المعنى عميق الدلالة، وهو مناسب لهذه الليلة غاية المناسبة، فهي الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، وتقدَّر فيها أعمال العباد لسنة كاملة حتى ليلة القدر الأخرى، فمن أعطي في تلك الليلة العفو العافية، فقد أفلح غاية الفلاح.

فاللهم وفقنا لقيام ليلة القدر واكتبنا ممن قامها إيمانًا واحتسابًا
واعف عنا إنك عفو كريم



---

(١) صحيح سنن ابن ماجه.




[٢٤]

رمضان يُربِّينا على الصبر

ذلك لأن الصائم يجمع في صومه أنواع الصبر الثلاثة:

١ـ الصبر على طاعة الله، من صيام ذكر وتلاوة وصلاة وصدقة ونحوها.

٢ـ والصبر عن المعصية؛ لأن الصائم يعمل على اجتناب ما حرَّم الله، من معاصي القلب والجوارح.

٣ـ الصبر على أقدر الله المؤلمة، كشعوره بالجوع والعطش وضَعف النفس والكسل، ونحو ذلك.

ـ فالطاعات ـ خصوصًا الطاعات الشاقة ـ كالجهاد في سبيل الله، والعبادات المستمرة كطلب العلم والمداومة على الكلِم الطيب والعمل الصالح، لا تتم إلا بالصبر عليها، وإذا ضعف الصبر ضعفت هذه الأفعال وربما انقطعت.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم:٦٥].

ـ وكذلك كفُّ النفس عن المعاصي ـ خصوصًا المعاصي التي في النفس داعٍ قويٌ إليها ـ لا يتم الترك إلا بالصبر والمصابرة على مخالفة الهوى وتحمُّل مرارته.




قال تعالي: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]

أي: لا يَنالُ العبدُ الابتعادَ عن السيئة، بفعل الحسنة، إلا بالصبر، كما لا ينال الجنةَ أحدٌ الا بالصبر، ثم كرر الله تعالى الحثَّ على الصبر في مثل هذا الموطن، فقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]

ـ وكذلك المصائب حين تنزل بالعبد ويريد أن يقابلها بالرضا والشكر والحمد لله على ذلك، لا يتم ذلك إلا بالصبر واحتساب الأجر.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]

عُزِّى بعضُ السلف في مصيبة أصابته فقال: مالي لا أصبر، وقد وعدني الله مع الصبر ثلاثَ خصال، كل خصلة خير من الدنيا وما عليها .

ومتى مرّن العبد نفسه على الصبر ووطّنها على تحمُّل المشاق والمصاعب وجدّ واجتهد في تكميل ذلك، صار عاقبتُه الفلاح والنجاح.

وإن رمضان مدرسة عظيمة، يتمرَّن العبدُ فيها على ذلك كلِّه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأفضل أنواع الصبر: الصيام؛ فإنه يجمع الصبرَ على الأنواع الثلاثة؛ لأنَّه صَبرٌ على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وصَبْرٌ عن معاصي الله؛ لأن العبد يترك شهواتِهِ لله ونَفْسُه قد تُنازِعُه إليها؛ وفيه أيضًا صَبرٌ

على الأقدار المؤلمة بما قد يحصل للصائم من الجوع والعطش»(١)

الصبر هو الأساس لكل خُلُقٍ جميل، والتنزه عن كلِّ خُلُقٍ رذيل، وهو حبس النفس على ما تكره، وحملُها على خلاف مرادها، طلبًا لرضا الله وثوابه.

وصبر الصائم معناه: ضبط اللسان، ضبط السمع والبصر، ضبط الانفعالات النفسية، والمراد مقاومة الغضب والانفعالات السلبية، وهذا مما يتطلب من العبد مجاهدة حقيقية للنفس، لكنَّ العاقبةَ حميدة، والثمرةَ أكيدة، حيث يعتاد المسلم على التحكم في سلوكياته، ويزداد هدايةً وطاعة.

شهر الصبر:

ومن هنا سَمَّى النبي ﷺ رمضان شهر الصبر، حين قال: «صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، صَوْمُ الدَّهْرِ»(٢)، فإذا رُزق الإنسان الصبر في شهر الصبر، فقد رُزق الخيرَ كلَّه؛ كما قال ﷺ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(٣)

ـ لأن صاحبه مبشَّرٌ من الله، كما قال الله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

ـ ولأنه فائزٌ بمعية الله، كما قال الله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]

(١) مختصرًا من جامع العلوم والحكم.
(٢) صحيح سنن النسائي.
(٣) متفق عليه.




ـ ولأنه موعودٌ بالرفعة في الدنيا، والنجاة في الآخرة، أما الرفعة في الدنيا، فقد قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، وأما النجاة في الآخرة، فقد قال الله: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:١١١]

حاجتنا إلى الصبر:

حاجتنا إلى الصبر في هذا العصر، تتضاعف أضعافًا كثيرة عن حاجة مَن قبلنا إليه، وذلك بسبب كثرة الفتن وتنوعها، ولعلَّ الأيام التي وصفها النبي ﷺ بأنها أيامُ الصبر هي هذه الأيام، ففي الحديث، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ أَوَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**بَلْ مِنْكُمْ**»(١)

فالمؤمن في هذا العصر أحوج ما يكون إلى مضاعفة قدراته في الصبر، مستعينًا بالله، حتى يستطيع أن يواجِه تقلبات زمن الغربة، ذلكم الزمن الذي قال فيه ﷺ: «**يأتي على الناس زمانٌ، الصابرُ فيه على دِينه، كالقابض على الجمر**»(٢)

والسبب في ذلك: كثرة الفتن والشهوات، واستفحال المعاصي والمنكرات، فأصبحت نهارًا جهارًا بغير حياء ولا خجل، بل أصبح ذلك من

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وانظر الصحيحة، وصحيح الترغيب والترهيب.

(٢) صحيح سنن الترمذي.




الأمور الغير مستنكرة، حتي صار كثيرٌ من الآباء يرون أبناءهم وبناتِهم عاكفين علي الأفلام، والبرامج المهلكة، والقنوات المليئة بالسوء والشر، والويل لك إذا أنكرت منكرًا، أو نهيت عن شر، سمعت الكلمة الخبيثة التي شبَّ عليها الصغير، وهرَم عليها الكبيرة (عادي)!!

ولهذا قال الله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]، ذلك لأن الصبرَ خيرُ معينٍ للعبد في هذه الحياة؛ ليتجاوز كل الحواجز النفسية والحسية التي تعوقه عن الله ومعالي الأمور، ليصبح عبدًا لله لا عبدًا لشهوته وهواه.

وقُدِّم على الصلاة، وذلك لأن مقامه أعلى المقامات؛ لأنه جامع لمكارم الصفات والحالات.

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]

وقال: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠]

وفي الحديث: «**ومن يتصبَّر يصبِّره الله**»(١)، أي يُسهِّل عليه الصبر، والتصبر هو تكلُّف الصبر، والمعنى: فإذا صبَّرت نفسك وألزمتَها ذلك، صار ذلك سجية لها لا يشق عليها.

---

(١) متفق عليه.




وقال ﷺ: «**والصبر ضياءٌ**»(١)، و«المراد أن الصبر محمود، ولا يزال صاحبه مستضيئًا مهتديًا مستمرًّا على الصواب»(٢)

وقيل: يا رسول الله! أي الإيمان أفضل؟ قال: «**الصبر والسماحة**»(٣)

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من أجمع الكلام وأعظمه برهانًا وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها، فإن النفس يراد منها شيئان: بذل ما أُمِرت به وإعطاؤه، فالحامل عليه السماحة وترك ما نهيت عنه والبعد منه فالحامل عليه الصبر»(٤)

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: «أَلَا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَإِذَا قُطِعَ الرَّأْسُ بَادَ الْجَسَدُ، ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ فَقَالَ: أَلَا إِنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ»(٥)

وإذا نظر العبد إلى الدين في جملته، رآه يرجع إلى الصبر والشكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥]

والعبد في هذه الدنيا لا يخرج عن أربعة أحوال: أمرٌ يجب أن يمتثله، ونهيٌ يجب أن يكف عنه، وقدَرٌ يجب التسليم له، ونعمٌ يجب عليه الشكر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) شرح مسلم.

(٣) رواه ابن أبي شيبة، بسندٍ صحيح.

(٤) مدارج السالكين.

(٥) الصبر والثواب عليه لابن أبي الدنيا.




فيها، وهذه الأحوال جميعًا تحتاج إلى الصبر.

فلولا الصبر لما حصد الزارع بذره، ولما جنى الغارس ثمره، ولما سكن الساكن بَيْتَه، وهكذا كل الناجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر .

فلا إيمان لمن لا صبر له، وإن كان !! فإيمان قليل في غاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله على حرف، إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة.

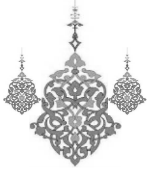
الصبر خُلق عظيم يستزيد الصائم منه ويستعين به على كل آلامه التي يعيشها، وآماله التي ينتظر تحقيقها، وعلى كل ما يعتريه في حياته من شدائدَ وخطوبٍ وملمات.

وإذا كان أهل الدنيا يهُون عليهم الصبر على المشقات العظيمة لأجل تحصيل حطامها، فكيف لا يهُون على المؤمن الموفَّق الصبرُ على ما يحبه الله لأجل الحصول على رضوان الله والجنة!!

الصائم المحتسب لا يثور لأتفه الأسباب كحال من لم يتسلحوا بالصبر، ممن يظنون أن الصوم عقوبة وحرمان، فيخرجون عن طَورهم، وتثور نفوسهم، وتضطرب أعصابهم، أما الصائم المحتسب فتراه هادئ النفس، ساكن الجوارح، راضي القلب.

فاللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا، أن ترزقنا الصبر على طاعتك، وعن معصيتك، وعلى أقدارك المؤلمة

٭٭٭




[٢٥]

رمضان يُربِّينا على الشكر

ها هو رمضان يربينا على هذا المعنى، ويُلفتُ أنظارنا إلى هذه المنة، ففي سورة البقرة، حين أمر الله تعالى بالصيام، وأفصح عن فرضيته، وبيَّن حِكمة مشروعيته، وأكَّد ما شرعه الله في رمضان من أحكام، من النّعم العظيمة، التي امتنَّ الله بها على عباده وندبهم إلى شكره عليها، بل بيّن سبحانه في هذه الآيات أنه لا يريد بعباده المؤمنين إلا اليُسر والرحمة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]

إننا إذا تأملنا هذه الآيات لوجدنا أن إظهار النعمة بفرض الصيام يكاد يكون غرضًا أساسيًّا من أغراضها، **وذلك من وجوه ثلاثة:**

أحدها: مِنَّة الله تعالى على العباد بفرض الصيام كشريعةٍ تأخذ بيد المؤمنين إلى التقوى، وتيسّر لهم السبيل إليها، وتهيئهم لمزيد من القرب من الله تعالى ونيل رضوانه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

والثاني: مِنّة الله على عباده بجعل رمضان أيامًا معدودات، والتماس الأعذار فيه لأصحاب الأعذار، والتخفيف عمّن لا يطيق الصيام لسبب أو

لآخر، قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٨٤].

والثالث: مِنّة الله تعالى على عباده بشهر رمضان نفسه وزمانه، وما جعل الله فيه من أجورٍ عظيمة، وفضائل كثيرة، كتنزيل القرآن، الذي هو أعظم المنن وأجلّ النعم، قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:١٨٥].

فهذه وجوه ثلاثة تبرزها الآيات الكريمات بجلاء، ومقصودها أن نُوقِن أننا في رمضان في نعمة عظيمة، يجب أن نعمل جاهدين على شكرها.

نعمٌ لا تُحصَى:

نِعَمُ الله تعالى على عباده كثيرة وعظيمة، فمُذ أن استهل المرء صارخًا من بطن أمه وهو في نعم الله يتقلب فيها ليلًا ونهارًا، فلا تمر عليه لحظة من اللحظات إلا ولله عليه فيها نعمة من النعم التي تستلزم الشكر.

قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان:٢٠]

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم:٣٤]

والمعنى: وإن تتعرضوا لتعداد نعم الله التي أنعم بها عليكم إجمالًا فضلًا عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه، ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال وذلك مثل النعم المعتادة التي ينسى الناس أنها من النعم، كنعمة التنفس، ونعمة الحواس، ونعمة هضم الطعام.(١)

فربنا تبارك وتعالى قد أنعمَ على عباده بنعم لاتعد ولا تُحصى وطلب منهمُ الشُّكرَ، ورضي به منهم.

قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: «إِنَّ اللهَ أَنْعَمَ عَلَى الْعِبَادِ عَلَى قَدْرِهِ، وَكَلَّفَهُمُ الشُّكْرَ عَلَى قَدْرِهِمْ حَتَّى رَضِيَ مِنْهُمْ مِنَ الشُّكْرِ بِالِاعْتِرَافِ بِقُلُوبِهِمْ بِنِعَمِهِ، وَبِالْحَمْدِ بِأَلْسِنَتِهِمْ عَلَيْهَا»(٢)

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ فَشَكَى إِلَيْهِ ضِيقًا مِنْ حَالِهِ وَمَعَاشِهِ، وَاغْتِمَامًا مِنْهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: أَيَسُرُّكَ بِبَصَرِكَ هَذَا الَّذِي تُبْصِرُ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَسَمْعُكَ الَّذِي تَسْمَعُ بِهِ يَسُرُّكَ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَلِسَانُكَ الَّذِي تَنْطِقُ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَفُؤَادُكَ الَّذِي تَعْقِلُ بِهِ مِائَةُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَيَدَاكَ يَسُرُّكَ بِهِمَا مِائَةُ أَلْفٍ؟

قَالَ: لَا؟ قَالَ: فَرِجْلَاكَ؟ قَالَ: فَذَكَّرَهُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يُونُسُ، قَالَ: أَرَى لَكَ مِئِينَ أُلُوفًا، وَأَنْتَ تَشْكُو الْحَاجَةَ.(٣)

عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، سَمِعْتُ عَائِشَةَ، تَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ

(١) انظر فتح القدير للشوكاني، التحرير والتنوير، لابن عاشور.

(٢) جامع العلوم والحكم.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لابي نعيم.

الْقَرَاحَ، فَيَدْخُلُ بِغَيْرِ أَذًى، وَيَخْرُجُ بِغَيْرِ أَذًى، إِلَّا وَجَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ»(١)

نعمة الإيمان والطاعة والهداية:

ألا وإن أعظم نعم الله على الإنسان، أن يهديه إلى الصراط المستقيم، أن يوفِّقَه إلى طاعته والعمل على مرضاته، ولو أن العبد قضى عمُرَه كلَّه ساجدًا راكعًا، لما وفَّى هذه النعمة حقَّها ولا أدَّى شكرَها.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «مَنْ لَمْ يَعْرِفْ نِعْمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرِبِهِ فَقَدْ قَلَّ عَمَلُهُ، وَحَضَرَ عَذَابُهُ»(٢)

يقول الله تعالى ـ ممتنًا على عباده بهذه النعمة، ومبيِّنًا عظمة مكانتها، وأنها مِنَّته سبحانه على من شاء من عباده ـ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فإن قيل: وكيف يكون شكر العبد ربَّه على نعمة رمضان، وعلى سائر نعمه العظيمة؟

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا.

(٢) الشكر، لابن أبي الدنيا، الزهد والرقائق، لابن المبارك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشكر يكون: بالقلب، خضوعًا واستكانةً، وباللسان، ثناءً واعترافًا، وبالجوارح، طاعةً وانقيادًا»(١)

وتفصيل ذلك:

أولاً: شكر القلب:

أن يستشعر القلب قيمة النعم التي أنعمها الله على عبده، وأن المنعم بهذه النعَم الجليلة هو الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]، وليس هذا الاعتراف من قَبيل المستحب، بل ذلك من أعظم الواجبات على العبد.(٢)

ثانيًا: شكر اللسان:

فهو الاعتراف لفظًا، بعد اعتقاد القلب، بأن المنعِم على الحقيقة هو الله تعالى، واشتغال اللسان بالثناء على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى ـ في سياق بيان نعمه على عبده محمد ﷺ ـ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا

---

(١) مدارج السالكين.

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولًا، واعترافًا، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعَم الله بقلبه، ولسانه، فذلك كافر، ليس معه من الدين شيء، ومَن أقر بقلبه أن النعَم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارةً يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله، وإلى سعي غيره – كما هو جارٍ على ألسنة كثير من الناس – فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وأن لا يضيف النعم إلا إلى مُولِيها، وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان، والتوحيد إلا بإضافة النعَم إلى الله، قولًا، واعترافًا» [القول السديد]

فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، ثم أمره في مقابل ذلك بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ [الضحى:١١]

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي وكما كنت عائلا فقيرًا فأغناك الله: فحدِّث بنعمة الله عليك»(١)

ومن هنا قال بعض السلف: «مَن كتم النعمة فقد كفَرها، ومن أظهرها ونشرها، فقد شكرها».

ورُويَ عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تذاكروا النِّعَم ، فإنَّ ذِكرها شكرٌ»(٢)

ثالثًا: شكر الجوارح:

وهو أن يسخِّر العبدُ جوارحَه في طاعة الله، ويجنبها ارتكاب ما نهى الله عنه من المعاصي، قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣].

قال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الشكر على درجتين: إحداهما واجب، وهو أن يأتي بالواجبات، ويتجنب المحرمات، فهذا لا بد منه، ويكفي في شكر هذه النعم، ومن هنا قال بعض السلف: «الشكر ترك المعاصي»، وقال بعضهم: «الشكر أن لا يُستعان بشيءٍ من النعَم على معصيته»، وذكر أبو حازم الزاهد شكرَ الجوارح كلها، فقال: «أن تكف عن المعاصي ، وتستعمل في الطاعات»، ثم قال: «وأما مَن شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثَلُه كمثل رجل له كساء فأخذ

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: ابن عجيبة.

بطرفه، فلم يلبسه، فلم ينفعه ذلك من البرد، والحر، والثلج، والمطر».

الدرجة الثانية من الشكر: الشكر المستحب، وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض، واجتناب المحارم، بنوافل الطاعات، وهذه درجة السابقين المقربين، ومنه قول عَائِشَةَ ﵂: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، فقلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»(١)(٢)

واعلم أن: المسلم دائم الطلب من ربِّه تعالى أن يعينه على شكره تعالى؛ إذ لولا توفيق الله لعبده، وإعانته له، لما حصَّل الشكر، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٣)

واعلم كذلك أن: شكر النعَم نعمة تحتاج لشكر، وهكذا يبقى العبد متقلبًا في نعَم ربِّه، وهو يشكر ربه على تلك النعم، ويحمده أن وفقه إلى أن يكون من الشاكرين.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الشاكرين،
وأن يوفقنا لما يحب ويرضى

(١) متفق عليه.
(٢) جامع العلوم والحكم.
(٣) صحيح سنن أبي داود.

[٢٦]

رمضان يُربِّينا على مجاهدة النفس في طاعة الله

فالصائم في جهاد بالنهار صيامًا وبالليل قيامًا، كما قال بعضهم: المؤمن يجتمع له في شهر رمضان جهادان لنفسه، جهاد بالنهار على الصيام، وجهاد بالليل على القيام، فمن جمع بين الجهادين ووفَّى حقهما وصبر عليهما، وُفِّيَ أجرَه بغير حساب.

وتلمح معنى الجهاد في رمضان، حين تتأمل قول النبي ﷺ: «**الصّيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة؛ يقول الصّيام: أي ربّ، منعته الطّعام والشهوات بالنّهار، فشفّعني فيه، ويقول القرآن: منعته النّوم باللّيل فشفّعني فيه، فيُشفَّعان**»(١)

فالصيام يشفع لمن منعه الطعام والشهوات المحرّمة كلّها، سواء كان تحريمها يختصّ بالصّيام، كشهوة الطعام، والشّراب، والنّكاح، ومقدماتها، أو لا يختص به، كشهوة فضول الكلام المحرّم، والنظر المحرّم، والسّماع المحرّم، والكسب المحرّم؛ فإذا منعه الصّيام من هذه المحرّمات كلّها، فإنه يشفع له عند الله يوم القيامة، ويقول: يا ربّ، منعته شهواتِه، فشفّعني فيه، فأمّا

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.




من ضيّع صيامه ولم يمنعه ممّا حرّمه الله عليه، فإنّه جدير أن يُضرب به وجهُ صاحبه؛ ويقول له: ضيّعك الله كما ضيعتني.

وكذلك القرآن إنما يشفع لمن منعه من النوم بالليل، فإن من قرأ القرآن وقام به، فقد قام بحقّه فيشفع له.

ومن هنا نستطيع القول بأن:

رمضان شهر المجاهدة:

فإنَّ الله تعالى قد جعل الدنيا دارَ بلاءٍ وامتحان، ولا سبيل إلى اجتياز هذا الامتحان إلا بجِهادٍ ومُجَاهدة، وصَبْر ومُصَابرة، فمن فعل وصبر في ذات الله، وجَاهَد في سبيله، كان حقًّا على الله أن يَرْضَى عنه، ويُدْخِلَهُ الجنَّة.

والعبدُ منذ تكليفه إلى أن يفارق هذه الحياة، يَخُوض معركةً مع نفسه وشيطانِه، فنفسه تَدْعُوه إلى هواها، وشيطانُه يَؤُزُّه إلى ما يُرْدِيه ويُهْلِكُه، **والناس على فريقَيْنِ:**

الأول: من يَغْلِبُه شيطانه، ويتبعُ شهواتِ نفسِه، ويَنْسَى حقوق ربه، فمصيرُه ما ذكر الله تعالى بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩].

والثاني: من غلب شيطانَه، وقَهَر نفسَه، وتمتع بما أَحَلَّ الله له من الشهوات، ولم يُجَاوِز ذلك إلى ما حَرَّم الله عليه، وقام بحقّ الله تعالى خير قيام؛ فهذا هو السعيد الذي ذكر الله شأنه حين قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «مَحَبَّة الله تُوجِب المُجَاهَدة في سبيله قطعًا؛ فإنَّ من أحب الله، وأحبه الله، أحب ما يُحِبُّه الله، وأبغض ما يُبْغِضُه الله، ووالى من يُواليه الله، وعَادَى من يُعاديه الله، لا تكون مَحَبَّةٌ قط إلاَّ وفيها ذلك بحسب قوتها وضعفها»(١)

أعظم الجهاد:

إنَّ مُعالجةَ النَّفْس ومُجَاهَدتها، ومقاومة الشيطان، أعظمُ أنواع الجهاد؛ لأنه جِهَاد يَسْتَغرِقُ العمر كله.

فلا تُجتنب المعاصي، ولا يستطيع العبد أن يحافظ على الطاعة ويداوم عليها، ويأتي بالفرائض والمَنْدُوبات، إلا بالمجاهدة.

فمن صدق مع الله تعالى، وجاهد نفسه، وفَّقَهُ الله إلى الهُدى، وبلَّغه ما تَمَنَّى، وضعف تَسَلُّط الشيطان عليه، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩]

فعلَّق سبحانه وتعالى الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته.(٢)

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمجاهدة مفتاح الهداية لا مفتاح لها

---

(١) قاعدة في المحبة.

(٢) الفوائد، لابن القيم.

سواها»(١)

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨]، قال ابن المبارك ـ في تفسيرها ـ: «الجهاد في الله هو جهاد النفس والهوى»(٢)

وقال ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(٣)

وقال ﷺ: «**أفضلُ الْمُؤْمِنينَ إسْلامًا مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسانِهِ وَيَدِه، وأفْضَلُ الْمُؤْمِنينَ إيمَانًا أحْسَنُهُمْ خُلُقًا وأفْضَلُ المُهاجِرِينَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهى اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وأفضلُ الجهادِ من جاهَدَ نفسَه في ذات اللهِ** عَزَّوَجَلَّ»(٤)

قال أُبَيّ بن كَعْب رضي الله عنه: «كان رجل لا أعلم رجلًا أبعد من المسجد منه، وكان لا تُخْطِئُه صلاةٌ، فقيل له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء وفي الرَّمْضَاء، قال: ما يَسُرُّنِي أن منزلي إلى جَنْب المسجد، إني أُرِيد أن يُكتب لي مَمْشَاي إلى المسجد، ورُجُوعي إذا رجعت إلى أَهْلي، فقال رسول الله ﷺ: «**قد جمع الله لك ذلك كلَّه**»(٥)

سأل رجلٌ عبدَ الله بنَ عمر عن الجهاد؟ فقال: ابدأ بنفسك فجاهدها.(٦)

---

(١) إحياء علوم الدين.

(٢) ذم الهوى.

(٣) أخرجه أحمد، وصححه الألباني في الصحيحة.

(٤) رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٥) رواه مسلم.

(٦) جامع العلوم والحكم: ابن رجب.




قال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه ـ لعمر حين استخلفه ـ: «أول ما أحذرك نفسك التي بين جنبيك»(١)

قال إبراهيم بن علقمة لقومٍ جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر! قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب»(٢)

يا من يجاهد غازيًا أعداء ∴ دين الله يرجو أن يعان ويُنصرا

هلا غشِيت النفس غزوًا إنها ∴ أعدىٰ عدوك كي تفوز وتُنصرا

إن أنت نِلت جهادها وعنادها ∴ فلقد تعاطيت الجهاد الأكبرا

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ، وأصلًا لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا، لِتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَتَتْرُكَ مَا نُهِيَتْ عَنْهُ، وَيُحَارِبهَا فِي اللهِ، لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ، فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ، وَالِانْتِصَافُ مِنْهُ، وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَه، مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ»(٣)

جاء رجل لبعض العارفين، فقال: قطعتُ إليك مسافة، فقال له: «ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة وقد حصل لك مقصودك»(٤)

---

(١) جامع العلوم والحكم: ابن رجب.

(٢) جامع العلوم والحكم: ابن رجب.

(٣) زاد المعاد.

(٤) مجموعة رسائل ابن رجب.




إذا عرفت ذلك، وأيقنتَه، فاعلم أن المجاهدة: حمل النفس على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وإذا قَوي العبد على ذلك قَوي على جهاد أعداء الدين.

قال القشيري: أصل مجاهدةِ النفس فطمها عن المألوفات، وحملها على غير هواها.(١)

إن هذه المعاني العظيمة تتجلى في رمضان أكثر من غيره، فالعبد في رمضان يُجَاهد نفسه، ويكبح شهوته؛ إرضاءً لربه، رجاءَ قبول صومِهِ وطاعته، فالصائم في تدريب نهاري، وآخَر ليلي؛ حتى تَرْتاضَ نفسُه عليها، ومن قدر على الصيام عن المُفَطِّرات طوال النهار فهو قادر على الصيام عن المُحَرَّمَات طوال الليل، ومن صام عن المُحَرَّمات في رمضانَ، فقد أثبت أنه قادر على تركها في غير رمضان، وهذه هي المُجَاهدة وثمرتها.

الطريق:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجهاد النفس على أربع مراتب:

الأولى: مجاهدتها على تعلم الهدى ودين الحق .

الثانية: مجاهدتها على العمل به .

الثالثة: مجاهدتها على الدعوة إلى الحق .

الرابعة: مجاهدتها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق .

ثم قال: فإن استكمل المسلم هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالِم لا يستحق أن يكون ربانيًا حتى يعرف الحق

---

(١) فتح الباري.

ويعمل به ويُعلِّمه، فمن عَلم وعمل وعَلّم، فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات .(١)

وأعظم ما يعينك بعد الله على ذلك كلِّه: ألا تُجهد نفسك في التدبير لشئون دنياك، ولكن أجهد نفسك للتدبير لشئون أخراك:

إن الذي يريد صلاح نفسه، إن الذي يريد السير في الطريق إلى الله لا يُجهد نفسه ولا يتعبها إلا في شئون الآخرة وسيكفيه الله ما أهمه، أما في أمور الدنيا فليأخذ العبد فقط بالأسباب دون أن يرهق نفسه أو يُتعب قلبه، ففي الحديث:

«مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»(٢)

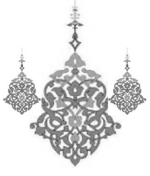
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ∴ أتطلب الربح مما فيه خسرانُ؟!
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ∴ فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ
وامدد يديك بحبل الله معتصمًا ∴ فإنه الركن إن خانتك أركانُ

فاللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خيرُ من زكَّاها



---

(١) مدارج السالكين.
(٢) صحيح سنن ابن ماجه.

[٢٧]

رمضان يُربِّينا على العزم وقوة الإرادة والتغيير

فكم من نفسٍ أقلعت عن الكلام السيِّئ بعد أن تربت وتعودت في هذا الشهر على هِجران قبيح القول، وكم من نفس أقلعت عن تعاطي الدخان وما شابهه من المحرمات بعد أن عزمت على تركه وهجره كاملًا في شهر رمضان، وكم من شخص عاد محافظًا على الصلاة مع جماعة المصلين، وكل ذلك وغيره كان في مدرسة الثلاثين يومًا المباركة في هذا الشهر العظيم.

فرمضان يغرس العزيمة، ويبني الإرادة؛ فالمسلم في رمضان يخالف العادات التي اعتادها، ويبتعد عن المألوفات التي أَلِفَها، ويتجنب الرغبات التي رغبها، فيستيقظ كل يوم قبيل الفجر، للسحور وصلاة الفجر، ويمتنع عن الطعام والشراب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، لمدة ثلاثين يومًا، ويمسك لسانه عن قبيح الأقوال، وأفعاله عن مساوئ الأخلاق، وفي ذلك تقويةٌ للإرادة، وتحسينٌ للعزيمة.

فيستطيع المسلم في رمضان أن يعوِّد نفسه على كل ما هو خير، إن صمَدَت إرادته، وقويت عزيمته، فإن علماء النفس يرَون أن أي إنسان يريد التغيير، فإنه يجب أن يكرر الشيء الذي يحب الانتقال إليه من ٦ إلى ٢١ مرة، حتى يُحدِث تغييرًا حقيقيًّا في حياته، فشهر رمضان من ٢٩ إلى ٣٠ يومًا،

يمسك فيها عن الطعام والشراب، وسائر المفطِّرات، والعادات المذمومة، أليست هذه برمجة على الإرادة؟!

يقول أديب العربية، مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ عن رمضان ـ: «فانظر في أي قانون من القوانين، وفي أي أمة من الأمم، تجد ثلاثين يومًا من كل سنة قد فُرضت فرضًا لتربية إرادة الشعب ومزاولتِه فكرةً نفسيةً واحدةً بخصائصها وملابساتها، حتى تستقر وترسخ وتعُودَ جزءًا من عمل الإنسان، لا خيالًا يمر برأسه مَرًّا، أليست هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساسًا في تكوين الإرادة؟....ثم ختم كلامه قائلًا: ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرفك العالم حق معرفتك لسماك: مدرسة الثلاثين يومًا»(١)

ويقول أيضًا: «وفي ترائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيقٌ آخرُ، وهو مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها، إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبيه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر، وهنا حكمة كبيرة من حِكَمِ الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي، الذي يدرِّب الصائم على أن يمتنع باختياره عن شهوته ولذَّاته، مصرًّا على الامتناع»(٢)

ففي هذا الشهر المعظَّم يتغيَّر كلُّ شيء، برنامج المجتمع اليومي، والبرنامج الشخصي لكل فرد، تتغير مواعيد النوم والعمل، ومواعيد الزيارات والطعام، تتغير عبادة الإنسان لربِّه، فيكون أكثر قربًا لله، أكثر قراءة

(١) وحي القلم، تحت عنوان: شهر للثورة.

(٢) وحي القلم.




للقرآن، أكثر صلاة، أكثر دعاءً، أكثر حِلمًا وعفوًا وصبرًا، يشعر الصائم بأنه إنسان آخر.

وهكذا يعلِّمنا رمضان أننا نستطيع أن نتغير لو أننا قرَّرنا ذلك.

فرمضان فرصة للتغيير:

ـ **لمن كان مفرِّطًا في صلاته:** فلا يصليها مطلقًا، أو يؤخرها عن وقتها، أو يتخلف عن أدائها في جماعة في المسجد، أن يجعل من رمضان فرصة للمحافظة على هذه الصلاة، وإجابة النداء، والصف الأول، ليدخل العبد في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٤-٣٥]، وليتصف بصفات المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣].

ـ **لمن هجَر القرآن، تلاوةً وتدبرًا وحفظًا وعملًا:** حتى أصبح القرآن نسيًا منسيًّا، أن يجعل من رمضان فرصة، للمحافظة على الورد القرآني، فها أنت تختم القرآن أكثر من مرة، فلماذا هجر القرآن طوال العام؟

ـ **لمن تعوَّد على حياة المترفين:** أن يجعل من رمضان فرصة لأن يخشوشن، معوِّدًا نفسَه على سائر الأوضاع، فإن النعمة لا تدوم، فلا يكن همُّك في هذا الشهر ما تأكل وما تشرب وما تلبس، ذاك همُّ النفس، أين همُّ القلب؟ أين هم القيام بالعبودية، وإحسانها، أين هم رضا الرب؟

ـ **لمن اتصف بالشُّحِّ والأنانية وفقدان الشعور بالجسد الواحد والأمَّة الواحدة:** فرمضان فرصة للقضاء على مثل هذه الصفات، فإنه في رمضان يشعر بالغير، ويحاول الإنفاق، فليستعن بالله مداومًا على ذلك، فإن النبي ﷺ قال: «**أحبُّ الناس إلى الله أنفعُهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله** عَزَّوَجَلَّ




سرورٌ تُدخِلُه على مسلم، تَكشف عنه كُربةً، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأَنْ أَمْشي مَعَ أخٍ في حاجَة؛ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أَعْتَكِفَ في هذا المسجِدِ -يعني مسجدَ المدينَةِ- شَهْرًا»(١)

ـ لمن كان قليل الصبر سريع الغضب: أن يُعوِّدَ نفسه في رمضان على الصبر والحلم والأناة، فأنت تصبر على الجوع والعطش، والتعب والنصب ساعاتٍ طويلة، ألا يمكنك أن تُعوِّد نفسك من خلال شهر الصبر: الصبرَ على الناس وتصرفاتهم وأخلاقهم، وتذكر قول النبي ﷺ: «**من كظم غيظًا وهو قادر على أن يُنفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور العين شاء**»(٢)

فليكن هذا الشهر بداية لأن يكون الصبرُ شعارَنا، والحلمُ والأناةُ دثارَنَا.

ـ لمن ابتلاه الله تعالى بتعاطي الحرام، من دخان، أو خمور ومخدرات: وقد صام عن كل ذلك في نهار رمضان، أن يستمر على جهاده وعزيمته، فلئن قدَرْت أن تُمسك عن ذلك نهارًا، فلتقدِرَنَّ ليلًا، إن أردت، فإن رب النهار هو رب الليل، ولأنك لا تعلم متى تُقبض، أبالنهار أم بالليل؟

فاستعن بالله على ترك هذا البلاء، فإن النصر صبر ساعة، والفرج قريب، وإن الله مع الصابرين.

---

(١) صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) أخرجه الترمذي وصححه الألباني.




فعلى من أراد التغيير والإصلاح والنجاح، أن يجعل من رمضان فرصة للتخلية عن جميع الصفات السلبية، والتحلية بكل الصفات الإيجابية.

واعلم رعاك الله أن:

الإرادة استعداد وإعداد؛ قال ربنا: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦]، والإرادة كذلك سعيٌ وهمة؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

إن الطالب الذي يريد أن ينجح في دراسته، يجتهد في دروسه، ويغتنم وقته، ويجاهد نفسه؛ ليحقِّق هدفه، ويُسعِد أهله، فكلما قويت تلك الأفكار عنده، قويت الإرادة لديه؛ فالصائم أشبه بالطالب، الطالب يحقق النجاح الدراسي، والصائم يحقق النجاح الإيماني، وكلما كان الصائم صاحب هدف واضح من صومه، كانت الإرادة واضحة في إصراره وهمته العالية في الصيام والقيام، متمثلًا قول الشاعر:

لأستسهلَنَّ الصَّعْب أو أُدرِكَ المنى .:. فما انقادَتِ الآمالُ إلا لصابرِ

أما أصحاب الإرادة الضعيفة، والعزيمة الهزيلة، فلا يبالون بوقت من ليل أو نهار يضيع هنا أو هناك، ويصدُقُ فيهم قول الشاعر:

ومَن رام العُلا مِن غيرِ كَدٍّ .:. أضاعَ العُمْرَ في طلَبِ المُحالِ

فصاحب الإرادة لا ينام إلا إذا غلبه النوم، ولا يأكل إلا إذا احتاج أن يسد رمقه، ولا يتكلم إلا إذا اضطر للكلام، فهو حريص على وقته، جديرٌ بالحفاظ على حياتِه.

والإرادة إنما تقوى بهذا الثلاثي: المجاهدة، والمسارعة، والمداومة.

واعلم كذلك أن: من سنن الله الكونية أن البشر يتحملون مسؤولياتهم في الرُّقِيِّ أو الانحطاط، فالتغيير يبدأ من النفس سواءٌ كان ذلك بالارتفاع والارتقاء إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل، وقد طرح القرآن الحد الإيجابي لهذا التغيير بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١]، وطرح حده السلبي بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣]

وهذه دعوة صريحة إلى إصلاح النفس أولًا، وبصلاحها يصلح البيت والمجتمع كلُّه، ويحصُل التغيير المنشود.

فاللهم هيِّئ لنا من أمرنا رَشدًا ∴ واجعلنا من عبيدك السُّعدا






[٢٨]

رمضان يُربِّينا على الإحساس بالمحتاجين، وتحقيق الإخوَّة بين المؤمنين

وذلك حينما يشعر الصائم بألم الجوع والعطش، فيسارع بمدِّ يدِ العون إلى مساعدتهم، وجاءت زكاة الفطر لتؤكد هذا الجانب وتبين هذا المعنى، فقد قال ﷺ: «**زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمةٌ للمساكين، من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات**»(١)

فمن جملة مسائل التقوى التي يحض عليها الصوم: أن يَشعر الغَنِيّ بحال الفقير، وكيف أنه يعاني الجوع والحاجة، فيدعوه ذلك إلى الإحسان ودفع حاجة أخيه.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتنابَ نهيه.

---

(١) رواه الدار قطني والبيهقي وغيرهما وانظر الإرواء وصحيح الجامع.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع، أوجب له ذلك، مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى»(١)

وقال الشيخ محمد المختار الشنقيطي حفظه الله:

«في الصيام خير كثير، فإنه يذكر الأغنياء بالفقراء والمحتاجين، فإن الإنسان إذا جاع وعطَش مع قدرته أو علمه أنه في آخر النهار سيجد الطعام وسيجد الشراب، سيتذكر الفقير الذي لا يجد طعامًا ولا شرابًا، ولذلك قالوا: إن هذا الصيام فيه مصلحة عظيمة للإنسان من جهة تذكره للضعفاء، وخاصة إذا كان من الأغنياء والأثرياء، فإن الغني ربما ينسى إخوانه من الضعفاء والفقراء بسبب ما فيه من الغنى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧]

فالإنسان إذا استغنى أصابه الطغيان، ولكن إذا جاع كما يجوع الفقير، وظمئ كما يظمأ الفقير، دعاه ذلك إلى أن يتذكر هؤلاء الضعفاء فيعطف عليهم»(٢)

فالصوم يبعث في الإنسان الشعور الجميل والأحاسيس الدينية والإنسانية والرقة واللين، ويُلهم صفة الشكر، وضرورة دعم الآخرين والمحتاجين، فلنتفقد الأقارب وأبناء الحي، ونبحث عن الأرامل واليتامى والمساكين، ونسعَ لتفريج كَربهم، حتى تخرج من رمضان، وقد صار ذلك

---

(١) تفسير السعدي.

(٢) «شرح زاد المستقنع» بترقيم الشاملة.




ديدنَدك وطبيعة حياتك، واذكر نبيك ﷺ لما أُنزل عليه الوحي في غار حراء، أتي بيته يرتجف فؤاده، وهو يقول لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: «**زمِّلوني، لقد خشيت على نفسي**»، فقالت رضي الله عنها: «كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»(١)

وأقبلت الفُرصة:

في تعزيز التآخي والتراحم والتكافل الاجتماعي، فرصةٌ عظيمة لتطبيق تعاليم الإسلام السمحة التي تُرسِّخ قيم التراحم والتكافل بين أفراد المجتمع، وقد أكد النبي ﷺ على هذا المعنى، حين قال: «**مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى**»(٢)

ويتجلَّى في رمضان هذا المفهوم واضحًا من خلال العبادات العملية التي تشمل الصدقات المفروضة، وصدقات التطوع، وزكوات الفطر، وإفطار الصائمين، ومساعدة المرضى والمحتاجين، هذه الأعمال ليست مجرد شعائر، بل هي من جوهر الدين الذي يُذكّرنا بأن المجتمع المسلم كالبنيان المرصوص، نتربى في رمضان على ذلك، ونواصل بعد ذلك.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

الإخاء والتكافل ليس في رمضان فقط:

ذلك لأنه من أوجب الأعمال التي دعا إليها الإسلام وأمر بها ورتَّب عليها الأجور العظيمة العاجلة والآجلة: تحقيق الإخاء العام، من إغاثة الملهوف ومساعدة الفقير والمسكين، وعَون المحتاجين.

قال رب العالمين ـ في وصف المؤمنين ـ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨-٩]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»(١)

وعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا**»، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(٢)

وذكر سبحانه خصال الإيمان، فقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ [البقرة:١٧٧]

وقال ﷺ قال: «**المُسْلمُ أخو المسْلم لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، ومن كانَ في حَاجةِ أخيهِ، كانَ اللهُ في حاجتهِ، ومن فَرَّجَ عن مُسْلمٍ كُرْبةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبةً**

---

(١) صحيح الجامع.

(٢) صحيح الترمذي.



من كُرَبِ يَوْمِ القِيامَةِ، ومن سَتَرَ مُسْلمًا سَتَرَهُ اللهُ يومَ القيامَةِ»(١)

وقال ﷺ: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»(٢)

فالتقرب الى الله تعالى بحب المسلمين، ومَدِّ يدِ العون لهم من أقوى البراهين على الإيمان، كما قال ﷺ: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ»(٣)

وقال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٤)

وهذا التآخي في الدنيا؛ يثمر مجدًا ويرفع قدرًا في الآخرة؛ كما جاء في الحديث: «إنَّ للهِ عِبادًا ليسوا بأنبياءَ ولا شُهَداءَ، يَغْبِطُهُمُ الشُّهَداءُ والأنبياءُ يومَ القيامةِ؛ لقُرْبِهِم مِنَ اللهِ تعالى ومَجلِسِهِمْ منه»، فجَثَا أَعرابيٌّ على رُكبَتَيْهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، صِفْهُم لنا، وجَلِّهِم لنا، قال: «قَوْمٌ مِن أَفناءِ النَّاسِ(٥)، مِن نُزَّاعِ القَبائلِ، تَصادَقوا في اللهِ، وتَحابُّوا فيه، يَضَعُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهُم يومَ القيامةِ مَنابرَ مِن نورٍ، يَخافُ النَّاسُ ولا يَخافون، هُمْ أولياءُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، الَّذين لا خَوْفٌ عليهِم ولا هُمْ يَحْزَنون»(٦)

فاللهم اجعلنا إخوة متحابين، وفي الآخرة على سرر متقابلين

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) صحيح الترغيب والترهيب.

(٤) صحيح البخاري.

(٥) أي من أخلاطهم، من هاهنا وهاهنا.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك، وانظر السلسلة الصحيحة.

[٢٩]

رمضان يُربِّينا على معاداة الشيطان

حين يعلم المؤمن أن الشياطين تُقيَّد في رمضان، وأنه يسهل عليه هزيمتهم وتفادي مكرهم، فإنه يقوى بعد ذلك على معاداتهم وسلوك غير طريقهم.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ»(١)

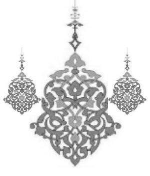
* وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَتْ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رمضان، صُفِّدَت الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ الْجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ»(٢)

أَبْشِروا معاشرَ المسلمينَ! فهذهِ أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةُ في هذا الشَّهرِ لأجلِكُم قد فُتِحَتْ، ونسماتُها على قلوبِ المؤمنينَ قد نَفَحَتْ، وأبوابُ الجحيمِ كلُّها لأجلِكُم مغلقة، وأقدامُ إبْليسَ وذرِّيَّتِهِ مِن أجلِكُم موثقة، في كلِّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني.

موسمٍ مِن مواسمِ الفضلِ يَحْزَنُ، وفي هذا الشَّهرِ يَدْعو بالويلِ والثُّبورِ لِما يَرى مِن تنزُّلِ الرَّحمةِ ومغفرةِ الأوزار، غَلَبَ حزبُ الرَّحمنِ وهَرَبَ حزبُ الشَّيطانِ، فما بَقِيَ لهُ سلطانٌ إلَّا على الكفَّار، عُزِلَ سلطانُ الهوى وصارَتِ الدَّولةُ لسلطانِ التَّقوى ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر:٢].(١)

فإن قيل: لماذا تقع المعاصي في رمضان، طالما أن الشياطين مصفَّدة؟

الجواب:

قال القرطبي: «فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ نَرَى الشُّرُورَ وَالْمَعَاصِيَ وَاقِعَةً فِي رَمَضَان كَثِيرًا، فَلَوْ صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهَا إِنَّمَا تَقِلُّ عَنْ الصَّائِمِينَ الصَّوْمَ الَّذِي حُوفِظَ عَلَى شُرُوطِهِ وَرُوعِيَتْ آدَابُهُ، أَوْ الْمُصَفَّد بَعْض الشَّيَاطِينِ وَهُمْ الْمَرَدَةُ لا كُلُّهُمْ كَمَا جاء فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ(٢)، أَوْ الْمَقْصُودُ تَقْلِيل الشُّرُورِ فِيهِ، وَهَذَا أَمْر مَحْسُوس فَإِنَّ وُقُوع ذَلِكَ فِيهِ أَقَلّ مِنْ غَيْرِهِ، إِذْ لا يَلْزَمُ مِنْ تَصْفِيد جَمِيعهمْ أَنْ لا يَقَعَ شَرّ وَلا مَعْصِيَة لأَنَّ لِذَلِكَ أَسْبَابًا غَيْرَ الشَّيَاطِينِ كَالنُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ وَالْعَادَات الْقَبِيحَة وَالشَّيَاطِينِ الإِنْسِيَّة.(٣) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ فَضَعُفَتْ قُوَّتُهُمْ وَعَمَلُهُمْ بِتَصْفِيدِهِمْ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَفْعَلُوا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي غَيْرِهِ، وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُمْ قُتِلُوا وَلَا مَاتُوا بَلْ قَالَ: «صُفِّدَتْ»

---

(١) لطائف المعارف.

(٢) والحديث في ذلك لا يصح.

(٣) فتح الباري.




وَالْمُصَفَّدُ مِنْ الشَّيَاطِينِ قَدْ يُؤْذِي لَكِنَّ هَذَا أَقَلُّ وَأَضْعَفُ مِمَّا يَكُونُ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ ؛ فَهُوَ بِحَسَبِ كَمَالِ الصَّوْمِ وَنَقْصِهِ ، فَمَنْ كَانَ صَوْمُهُ كَامِلًا دَفَعَ الشَّيْطَانَ دَفْعًا لَا يَدْفَعُهُ دَفْعُ الصَّوْمِ النَّاقِصِ»(١)

ومعركة الشيطان مع الإنسان لا تنتهي، لكن في رمضان انتصر الإنسان وقوِيت شوكتُه، فإذا ما انسلخ رمضان وعادت الحرب، صمد المؤمن أمام الوساوس والنزغات، واتخذ الشيطان عدوًا، امتثالًا لأمر الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦]

فإن قيل: وكيف ننتصر في معركتنا مع الشيطان؟

الجواب: إنَّ للشيطان دسائسَ، ومكائدَ يصيد بها الإنسان، وهي مع خفائها ظاهرة للعيان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف:٥]

الشيطان وهو يحاول إضلال الإنسان يَستعمل معه خطة منهجية يُنفِّذها خطوةً خطوة؛ قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

١- يَعرض على الإنسان فكرة الشر عن طريق الطيف والخيال؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، فإذا تذكَّرت أبصرت، وإن رأى منك استجابةً تابع.

(١) مجموع الفتاوى.




٢- يلقي في قلبك ما يريد إلقاءه؛ قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [الحج:٥٣].

٣- ثم يكرر ذلك، وهي مرحلة الوسوسة؛ قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٤-٥]

٤- ثم المبالغة بالتَّكرار، وعبَّر عنه الحق تعالى بـ الأزّ، وهو يشبه القِدر في غليانه؛ قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم:٨٣]

٥- ومع ذلك يَعِد ويُمنِّي؛ قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

٦- ويزين لك الفكرة؛ قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]

٧- ويسهل لك الطرق الموصلة إلى الضلال والانحراف، وقد جاء التعبير عن ذلك بالتسويل، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد:٢٥][1]

---

(١) قال الزمخشري: «سوَّل لهم: سهل لهم ركوب العظائم، من السَّول وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا عِلم له بالتصريف والاشتقاق جميعًا، وأملى لهم: ومدَّ لهم في الآمال والأماني».

٨- ثم يوقعك في الزلة، ويَغمسك في المعصية؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [آل عمران:١٥٥].

٩- ويظل يُتابعك حتى يوصلك إلى الغَواية: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥].

١٠- وعندها يستحوذ على قلبك، بمعنى: يحتل قلبك ويتمكن منه؛ ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ ﴾ [المجادلة:١٩].

١١- فيصبح صديقك المقرَّب وقرينك المحبَّب، ويصحبك في جميع أحوالك؛ ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ [الزخرف:٣٦]، ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾ [النساء:٣٨].

١٢- وعندها يوحي إليك ما يريد، والوحي هنا وحي شيطاني، وهو كناية عن الاتصال الخفي المستمر؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ ﴾ [الأنعام:١٢١].

١٣- وبذلك تكون قد انتظمت في سلك أتباعه، ومن المنتسبين إلى حزبه، وهو مسؤولك الأول، ورئيسك الأوحد، وهو الذي يتحكم في جميع أفعالك، ويتولى كل أمورك؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧].

وبذلك تكون قد وصلت إلى مقام العبادة الحقة للشيطان، ونقضت عهد الله، بعد أن حذرك قائلًا: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس:٦٠].

لكن يستطيع المؤمن أن يتفادى ذلك كلَّه بأسلحة الإيمان، التي يقصم بها ظهر الشيطان، ودونك أسلحة ثلاثة، يسهل عليك الآن استعمالها، ثم تأتي مواصلة السير بعد:

الأول: كثرة الذكر المانع من الغفلة.

الثاني: الاقتصاد المانع من الإسراف.

الثالث: إقبال المرء على إصلاح نفسه، دون الالتفات إلى ما لا يعنيه مما يضيع وقته ويفوِّت عليه الطاعات.

أما الأول: كثرة الذكر المانع من الغفلة، فهو مقصود القرآن والقيام الذي يعتني العبد بهما في رمضان، فالشيطان يفر ويخنس عند سماع الذكر، ولا يستطيع مقاومته، فالعبد لا يحفظ نفسه من الشيطان إلا بذكر الرحمن، كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ يَعْمَلُ بِهِنَّ، وَيَأْمُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ» وفيه: «وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى عَلَى حُصَيْنٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ، فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة

(١) صحيح سنن الترمذي.

لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى وأن لا يزالَ لهجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يَرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه ،وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر»(١)

وأما الثاني: وهو الاقتصاد المانع من الإسراف، وهو من أعظم مقاصد الصيام، فهو الذي يضيِّع على الشيطان فتنةَ الإنسان وإشغاله بالفضول(٢)، فضول الطعام، وفضل الكلام، وفضول المنام، وفضول النظر، وفضول السماع، فالفضول في كل شيءٍ مذموم، فإذا تخلص العبدُ منه، فقد سدَّ منفذًا عظيمًا للشيطان الرجيم.

وأما الثالث: وهو إقبال المرء على إصلاح نفسه، دون الالتفات إلى ما لا يعنيه مما يضيع وقته ويفوِّت عليه الطاعات، وهو من أعظم مقاصد الاعتكاف، التي تؤدي إلى إقبال القلب بكليته على الرب.

وحول هذه الأسلحة الثلاثة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

أحدها: التزيد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة، فتصير فضلةً، وهي حظُّ الشيطان ومدخله إلى القلب، وطريق الاحتراز [منه الاحتراز] من إعطاء النفس تمامَ مطلوبها من غذاءٍ أو نوم أو لذةٍ أو راحة؛ فمتى أغلقتَ هذا البابَ

---

(١) الوابل الصيب.

(٢) وهو القدْر الزائد عن المباح.



حصلَ الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة؛ فإن الذاكر في حصن الذكر؛ فمتى غَفَل فتح باب الحصن، فولجَه العدوُّ، فيعسُر عليه أو يصعبُ إخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء».[١]

فاللهم اعصمنا من الشيطان الرجيم



(١) الفوائد.

[٣٠]

رمضان يُربِّينا على حقيقة الفرح

فالصائم يتربى على أن أكثر ما يَفرح به المؤمن، طاعةُ الله تعالى والإخلاص له في العبادة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حين قال: «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرِح بفطره، وإذا لقِي ربه فرِح بصومه»(١)

فرحه عند فطره: يكون بما أنعم الله عليه من القيام بعبادة الصيام الذي هو من أفضل الأعمال الصالحة، وبما أباح الله له من الطعام والشراب والنكاح الذي كان مُحَرَّما عليه حال الصوم، فامتثل العبدُ أمر الله باجتناب ما حرم عليه في نهار الصوم، وامتثل أمره بالفطر الذي أحله له بعد غروب الشمس، وهذا لَمِن أجمل مظاهر العبودية التي تجلب فرح النفس.

وأما فرحه عند لقاء ربه: فيفرح بصومه حين يجد جزاءه عند الله تعالى مُوَفَّرًا كاملًا، في وقت هو أحوج ما يكون إليه، حين يقال: أين الصائمون؟ ليدخلوا الجنة من باب الريَّان الذي لا يدخله أحدٌ غيرهم.

ويدخل في هذا الفرح فرحه يوم العيد بإكمال صيام شهر رمضان، ولهذا

---

(١) متفق عليه.




يجد المؤمن الذي اجتهد في رمضان في يوم العيد فرحة عظيمة، ربما لا تسعف العبارات بوصفها، من ذاقها عرفها وهي فرحة خاصة لا يعرفها إلا من ذاقها، ليست كفرحة الأطفال بالعيد، التي هي فرحة جسدية فقط، وتلك فرحة الروح مع الجسد.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما فرحة الصائم عند فطره: فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح، فإذا مُنعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيح لها في وقت آخر فرحت بإباحة ما منعت منه خصوصًا عند اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعًا، فإن كان ذلك محبوبًا لله كان محبوبًا شرعًا، والصائم عند فطره كذلك، فكما أن الله تعالى حرم على الصائم في نهار الصيام تناول هذه الشهوات فقد أذن له فيها في ليل الصيام، بل أحب منه المبادرة إلى تناولها في أول الليل وآخره، فأحب عباده إليه أعجلهم فطرًا، والله وملائكته يصلون على المتسحرين، فالصائم ترك شهواته لله بالنهار تقربًا إلى الله وطاعة له ويبادر إليها في الليل تقربًا إلى الله وطاعة له، فما تركها إلا بأمر ربه ولا عاد إليها إلا بأمر ربه، فهو مطيع له في الحالين، ولهذا نهى عن الوصال في الصيام، فإذا بادر الصائم إلى الفطر تقربا إلى مولاه وأكل وشرب وحمد الله فإنه يرجى له المغفرة أو بلوغ الرضوان بذلك»

ثم قال: «وأما فرحه عند لقاء ربه: فيما يجده عند الله من ثواب الصيام مدخرًا، فيجده أحوج ما كان إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران:٣٠]، وقال: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧]»(١)

حقيقة الفرح:

وبين الله تعالى في كتابه بم يكون الفرح؟ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٧-٥٨]

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمر تعالى بالفرح، فقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها، فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوّتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

---

(١) لطائف المعارف.





بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]»(١)

فأحقُّ ما يَفرح به العبد طاعة الله تعالى، إذ الفرحُ بذلك حقيقي، يكون معه انشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وسكون النفس.

تأمَّل مثلًا: قولَ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وفي صحيح البخاري قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم..**» وأيُّ فرحٍ يعدِل فرح قلب العبد حين يذكُرُه الرب!

ولما كان الذكر بهذه المكانة العظيمة اشتغل به عباد الله الصالحون على كل أحوالهم، فمن شدة حبهم لله وتلذذهم بذكره يذكرونه قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١]، وهو ما حمَل النبيَّ ﷺ أن يقول: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس**»(٢)

تأمَّل كذلك: الصلاة الخاشعة، وفرَح النفس بها، وتلذُّذَ العبد بمناجاة ربه فيها، وهذا ما حمَل النبيَّ ﷺ أن يقول: «**وجعلت قرة عيني في**

(١) تفسير السعدي.

(٢) رواه مسلم.

الصلاة»(١)، ويقول ﷺ: «**يا بلال، أقم الصلاة أرحنا بها**»(٢)

وتأمَّل كذلك: فرحَ العبد بالدعاء، وانشراح صدرِه به، لا سيما إذا أيقن الإجابة وشعَر بها، لا سيما كذلك إذا كان الدعاء مما له الأثر في تفريج الكروب وإزالة الهموم، كما جاء في المسند وغيره، أنه ﷺ قال: «**ما أصاب أحدًا قط همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك؛ سمَّيتَ به نفسَك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا**»، فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «**بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»(٣)

وتأمَّل: فرحة التائب بتوبته وإقباله على ربه، هذه الفرحة الناتجة عن فرح الله بتوبة عبده، وقد ضرب النبي ﷺ لذلك مثلًا، فقال: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ في أرض دوية مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام، فاستيقظ وقد ذهبَت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحًا**

---

(١) صحيح سنن النسائي.

(٢) صحيح سنن أبي داود.

(٣) وانظر الصحيحة.




بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده»[(١)]، فإذا فرح الله بتوبة العبد، أفرحه بذلك في نفسه، ووجد أثر فرحة الله بزيادة فرحه وسروره وشعوره بقربه من ربه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا البتة، وليس له نظير يقاس به، وهو حال من أحوال أهل الجنة، **حتى قال بعض العارفين**: «إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب»، ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئًا منه، فليتَّهِم إيمانه وأعماله، فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نورًا يجد به حلاوة الإيمان، وقد ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذوق طعم الإيمان ووجْد حلاوته، فذكر الذوق والوجْد، وعلقه بالإيمان، فقال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمدٍ رسولًا**»، وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرءَ لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار**»، وسمعت **شيخ الإسلام ابن تيمية** قدس الله روحه، يقول: «إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا، فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور»، يعني أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراح وقرة

---

(١) رواه مسلم.




عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول»(١)

ويعظُم فرحُ المؤمن ويكتمِل سرورُه وتبلغ لذَّتُه منتهاها، حين يلقى ربَّه وقد عبدَه واجتهد في طاعته والتمس مرضاتَه، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]، فلا تسل عن فرحتهم بما أُخفِي لهم من النعيم العظيم.

فاللهم اجعل عملَنا كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا،
ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا

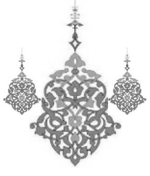


(١) مدارج السالكين.




المحتويات


















أعمال المؤلف

كتب مطبوعة :

[١] ٣٠ خطوة في طريق السعادة.

[٢] تدبر سورة يوسف.

[٣] تدبر سورة البقرة، دار اللؤلؤة.

[٤] الأدلة والبراهين على منهج السالكين، ط ٢ جديدة، دار اللؤلؤة

[٥] إنه الله معرفة ملزِمة، وعبودية محتَّمة (دراسة تربوية لأسماء الله الحسنى) ٢ مجلد، دار اللؤلؤة.

[٦] التربية بالمجاهدة، ط٢جديدة، دار اللؤلؤة

[٧] إتحاف المستمتع بتهذيب الشرح الممتع ٢ مجلد، دار اللؤلؤة.

[٨] التوضيحات السديدة على ٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة، ١ مجلد، دار اللؤلؤة.

[٩] المشوق إلى أذكار الصباح والمساء . دار اللؤلؤة.

[١٠] شرح صحيح القصص النبوي، للعلامة أبي إسحاق الحويني، ١ مجلد، دار اللؤلؤة.




[١١] عبودية القلب. (الستون حديثاً النبوية في الأعمال القلبية)، ٢ مجلد، دار اللؤلؤة

[١٢] إسعاف الجريح والجريحة بمعاني الأذكار الثابتة في السنة الصحيحة، دار اللؤلؤة

[١٣] الصوم حياة (قطوف إيمانية عملية تسوقك إلى الله) دار اللؤلؤة

[١٤] تصحيح المفاهيم في ضوء السنة النبوية. دار اللؤلؤة

[١٥] شرح أسماء الله الحسنى للطلائع.

[١٦] الخلاصة في معاني أسماء الله الحسنى.

[١٧] زبدة الكلام على عمدة الأحكام ٢ مجلد.

[١٨] ويزكيهم (قراءة تربوية لكتاب صحيح الأدب المفرد)

[١٩] الآَيَاتُ المَخْتومَة بأسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى، حَصْرُهَا، بَيَانُ مَعَانِيهَا، وَأَسْرَارُ خَوَاتِيمِهَا.

[٢٠] إصلاح النفوس بذكر ما في سورة النور من المفاهيم والدروس.

[٢١] تدبر العشر الأخير من القرآن الكريم.

[٢٢] المرشد الأمين إلى أخطاء المتعبدين.

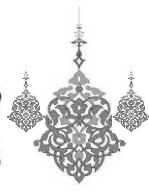
[٢٣] فصول في الفكر والمنهج.

[٢٤] حصن المؤمن الشامل.

[٢٥] منهج أهل السنة والجماعة في الإصلاح والتغيير.

[٢٦] رمضان يصنعك.

[٢٧] المستفاد من زاد المعاد.

كتب تحت الطبع:

[١] سلوكيات مرفوضة (١٠٠ سلوك مرفوض) ٢ مجلد.

[٢] تدبر سورة آل عمران.

[٣] فقه السنة الميسر (المسائل الفقهية مقرونة بأدلتها الشرعية).

[٤] المئوية في العملية التربوية (الأحاديث المائة في الأخلاق والتربية).

[٥] الله ينادي (إطلالة تربوية على سائر نداءات الله تعالى في كتابه)

[٦] أدلة وإضاءات على متن الورقات (منشور على شبكة الألوكة).

[٧] المشوِّق إلى العمل الصالح.

